

تأليف
د. نبيل راغب

الناشر : مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي الفجالة
سعيد جوده السحار وشركاه

دار مصر للطباعة
٣٧ شارع كامل صدقي

ـــ هل يمكن أن تطرد العملة الرديئة العملة الجيدة بهذه البساطة ؟!

نظر حسام إلى أستاذه ومثله الأعلى عبد الحليم رضا الذى لم يجب على سؤاله بل تشاغل بالنظر من نافذة مكتبه ومتابعة الشاحنات الضخمة التى وصلت إلى مخازن المؤسسة الصحفية حاملة حاجتها من الورق . لم يثقل عليه حسام بتكرار سؤاله بل احترم صمته ، لكن عينيه لم تبتعدا عن الوجه الذى فاض عليه بالحب والخبرة والحنان والعلم والكرم والنصح الخالص . لم تكن السيجارة تفارق شفتيه ، لكن الشعر فارق رأسه ولم يتبق منه سوى إطار أبيض دقيق يحيط بجوانبه الخلفية . أما ضخامة جسمه وطوله الفارع فكانا يتناقضان مع روحه الوديعة ورقته الآسرة لكل من يقترب منه ويتعامل معه . فقد شملت روح الدعابة عنده جميع العاملين ابتداء من كبار الصحفيين حتى صغار السعاة ، فهو أخوهم وأبوهم ، بل ومؤسس وصاحب الدار الصحفية قبل تأميم الصحافة فى عام ١٩٦٠ ، ورئيس مجلس إدارتها ورئيس تحرير جريدتها اليومية بعد التأميم . ولذلك تحولت المؤسسة إلى مأتم عندما صدر قرار بتحويل الأستاذ عبد الحليم رضا إلى مجرد كاتب بالجريدة وتعيين عصام قدرى محله فى رياسة مجلس الإدارة والتحرير .

لم يستطع حسام أن يخفى قلقه الذى تجسد فى ملامح وجهه الدقيقة المحدودة ، وحركة ساقه العصبية ، ودقات أصبعه على زجاج المكتب ، واهتزازات جسده النحيف الطويل ، ووميض عينيه السوداوين الواسعتين ، فقال بصوت عال :

ـــ ألاحظ اليوم يا أستاذ عبد الحليم أن سيادتك فقدت الشهية المعتادة فى الرد على كل ما يعن لى من خواطر ؟!

جذب عبد الحليم رضا عينيه بعيدا عن آخر لورى كان يفرغ آخر لفه ضخمة من لفات الورق ونظر إلى حسام :

ــ أبدا .. كنت أفكر فى العملة الرديئة التى أصبحت العملة القومية والرائجة فى هذه الأيام .. فى حين لم يعد هناك أى طلب على العملة الجيدة التى أوشكت أن تدخل المتاحف كعملة تاريخية !

انتهز حسام الفرصة ليقول بصراحة ما ألمح إليه من قبل :

ــ كان اعتقادى ولا يزال أن الخطأ هو خطأ العملة الجيدة التى تركت الفرصة للعملة الرديئة كى تحل محلها وتعيث فى الأرض فسادا .

أشعل عبد الحليم رضا سيجارة جديدة من السيجارة السابقة التى أطفأها :

ــ لا تنس يا حسام أننى أعمل بالصحافة قبل أن تأتى أنت إلى هذا العالم .. وقد نشأت على قيم من الصعب أن أغيرها بعد هذا العمر !

ــ إننى لم أقصد الانحراف عن هذه القيم .. فقد تعلمتها أنا نفسى على يديك .. لكننى أقصد أن مهادنة الانتهازيين والمتسلقين والمغرضين هى بمثابة مساعدة غير مباشرة لهم حتى يبطشوا بالآخرين عندما تسنح لهم الفرصة للقفز إلى المناصب القيادية فى الدار .. وهو ما حدث هذا الأسبوع للأسف !!

أطلق عبد الحليم نفَسا طويلا عميقا من الدخان فى حين كانت الابتسامة الحانية الوادعة لا تزال تتربع على وجهه :

ــ لقد عشت أكثر من أربعين عاما فى خدمة بلاط صاحبة الجلالة التى كانت عشق حياتى الوحيد .. والتى علمتنى أن تسجيل حديث مثير مع شخصية فذة .. أو كتابة مقالة تغير تفكير الناس فى موضوع حيوى خطير .. أو تأليف كتاب يملأ فراغا فى المكتبة العربية .. أو رحلة سريعة إلى مواقع الأحداث أو حول العالم للدراسة العملية .. كل هذا وغيره أفضل

ألف مرة من تضييع الوقت وتشتيت الجهد فى صراعات عقيمة مع أمثال عصام قدرى !

ومضت عينا حسام بالتحفز المعتاد فى حضرة الأستاذ عبد الحليم :

ـــ لكن ما العمل إذا كان تفادى الصراع مع أمثاله قد أدى إلى حصوله على مكانك فى الدار التى أنشأتها بنفسك وقضيت العمر كله فى تنميتها ؟!

قام عبد الحليم رضا من على مقعده خلف المكتب . ربت على كتف حسام فى حنو بالغ ثم جلس أمامه :

ـــ لا تظن يا حسام أننى أفتقر إلى روح القتال ! وأنت نفسك قرأت فى كتبى مدى المعاناة التى مررت بها فى المعتقلات والسجون ! لكن يتحتم على المحارب أن تأتى اللحظة التى يلقى فيها بسلاحه وخاصة بعد أن يعجز عن السباحة ضد التيار الجارف فى حين ينوء كاهله بعبء السنين .. ومع ذلك لا يفقد الأمل فى التطور المستمر من خلال تلاميذه الذين لا بد أن يحملوا الرسالة فى النهاية ..

شعر حسام أن الكلام موجه إليه بصفة شخصية :

ـــ وهل ستتركنا نحارب بمفردنا ؟!

ـــ بالطبع لا .. فأنا لا أزال كاتبا بالدار .. كما أن مكتبى وبيتى مفتوحان لكم دائما .. لكننى لم أعد أملك سوى النصيحة الخالصة لوجه الله .. وسأحاول التعبير عنها قدر طاقتى من خلال عمودى اليومى ..

ضغط حسام على أسنانه فى إصرار شديد :

ـــ قلبى يحدثنى أنها ستكون معركة شرسة طويلة !

ـــ لكن لا بد للخير أن ينتصر فى النهاية !

ـــ الله أعلم !

ـــ لو لم يكن انتصار الخير حتميا لفنى هذا العالم منذ أمد بعيد !

ـــ أروع ما يبهرنى فى شخصيتك يا أستاذ عبد الحليم تفاؤلك المتجدد برغم كل قوى الفساد المتربصة بالإنسان من كل جانب !
ابتسم عبد الحليم رضا وهو يطفىء سيجارة ويشعل أخرى جديدة :
ـــ لازلت أذكر الحكمة التى تعلمتها فى المدرسة منذ أكثر من نصف قرن والتى تؤكد أنه لا حياة مع اليأس ..
بادله حسام الابتسام :
ـــ هل يمكن أن يدفعك هذا التفاؤل إلى حضور اجتماع المحررين اليوم ؟!
ـــ لا أعتقد أن تفاؤلى يمكن أن يصل إلى هذا الحد .. فليس من المعقول أن أحضر اجتماعا برياسة عصام قدرى وهو فى زهو انتصاره .. فلن يأخذ حضورى بمفهوم « الجنتلمان » .. بل سيرى فيه منتهى الإذلال والاستسلام لى وأنت بالطبع لا ترضى لى بهذا !!
ـــ أنت أستاذ الكل ومعلمهم برغم كل شىء !
ـــ ما يدور على المستوى الإنسانى والعاطفى شىء وما يحدث على المستوى الرسمى والوظيفى شىء مختلف تماما !
ـــ إذًا ما النصيحة التى تحب أن نتسلح بها منذ البداية ؟!
ـــ أنت تعلم أننى لا أحب النصيحة النظرية .. فليس هناك أفضل من فهم واستيعاب المواقف والشخصيات التى تتعامل معها حتى تعرف وقع أقدامك وتتفادى المفاجآت قدر الإمكان ..
تساءل حسام فى جلسته المشدودة إلى المقعد :
ـــ بمعنى تطبيق سياسة : اعرف عدوك !
ـــ إلى حد كبير .. ولذلك أحب أن أحكى لك عن العقد الحقيقية المتحكمة فى سلوك عصام قدرى والتى قد لا يعرفها الكثيرون من أبناء جيلك العاملين فى الدار .. وإن كان بعضهم يعرفها على محمل

الإشاعات !

ومض حب الاستطلاع فى عينى حسام فتصلب جسمه المشدود :

ـــ وما هى حقيقة هذه العقد ؟!

ـــ منذ أكثر من ثلاثين عاما كنت أقوم بتدريس مادة التحرير لطلبة معهد الصحافة .. وكان عصام قدرى من تلاميذى .. لاحظت حيويته المتدفقة وحرصه على التعلق بى .. واللحاق بى عقب كل محاضرة وإلقاء الأسئلة المتعددة التى كان معظمها يدور حول إنجازاتى الصحفية .. بحيث أشعرنى بأنه وُلد ليكون صحفيا .. فألحقته بالدار ليقوم بالتدريب العملى اللازم .. وبرغم أننى لاحظت تعلقه برجال السلطة وحرصه على الارتباط بهم .. فإننى عللت سلوكه بطموح الشباب الذى يريد أن يصل إلى أهدافه بأسرع ما يمكن .. وبالفعل فوجئت بالمستشار الصحفى للملك فاروق يرسله فى بعثة إلى إنجلترا لدراسة الصحافة .. لم أكن أحب أن أسيىء الظن بالآخرين .. لكن حسِّى الصحفى حدثنى بأن السراى تريد أن تجعل منه رجلها فى الصحافة بعد عودته .. لكن الثورة قامت فى أثناء وجوده فى إنجلترا فاعتقدت أن حساباته كلها قد قلبت رأسا على عقب .. لكن يبدو أن حساباتى أنا هى التى كانت خاطئة !!

نقر حسام بأصابعه على زجاج المكتب وقال مبهورا :

ـــ كيف كانت حساباتك خاطئة ؟! إن ما تحكيه يا أستاذ عبد الحليم يمكن أن يكون مسلسلا تليفزيونيا فى منتهى الإثارة !!

ضحك عبد الحليم رضا ضحكة مقتضبة وأشعل سيجارة جديدة :

ـــ إذاً فلننتقل إلى الحلقة التالية .. عاد عصام مبهورا بكل ما رآه فى إنجلترا .. الزوجة الإنجليزية فى ذراعه والغليون فى فمه .. والحوار المطعم بالألفاظ الإنجليزية على لسانه .. كنت أظن أنه سيعود مهزوزا لقيام الثورة .. لكنه سرعان ما استعاد ثقته كأقوى ما يكون .. واكتشفت من

حيث لا أدرى أنه أصبح صديقا حميما لبعض ضباط الثورة .. وأصبح يتردد على النادى المفضل لهم ..

تساءل حسام :

ـــ وبماذا علل زواجه من الإنجليزية فى وقت كانت مصر فيه تصارع من أجل جلاء القوات البريطانية عن قناة السويس ؟!

ـــ لم يكن عصام قدرى من النوع الذى تقف أمامه أية عقبة .. فقد ردد فى كل مكان فى ذلك الوقت أنه تزوج منها لأنها كانت ضد الوجود البريطانى فى قناة السويس .. وأنها خسرت أهلها لإصرارها على هذا الموقف .. ثم بدأ سلسلة من المقالات النارية ضد الإنجليز !

لم يستطع حسام أن يمنع نفسه من التساؤل :

ـــ هل هذه كانت بدايات تكشف شخصيته كحرباء قادرة على التلون السريع ؟!

افترشت الابتسامة العذبة وجه عبد الحليم كله :

ـــ فى أيامى كان هناك بائع أقمشة يحملها فى لفة كبيرة معلقة فى متر خشبى ويدور على المنازل مناديا على بضاعته : على كل لون يا باتيستا !!

انتقل الابتسام إلى عينى حسام :

ـــ وكان هذا هو الشعار الحقيقى الذى طبقه عصام قدرى فى حياته ؟!

ـــ فعلا .. عندما شعر بإصرار قادة الثورة على جلاء الإنجليز .. أحال قلمه إلى قنبلة متفجرة بصفة مستمرة ضدهم .. وادعى أنهم يخططون لاغتياله مما دعا مجلس قيادة الثورة إلى تعيين حارس خاص له ..

ـــ وطبعا لم يحاول أحد اغتياله ؟!

ـــ كان أبعد الناس عن الاغتيال .. لأنه كان دائم الاعتماد على مركز الثقل ذى الكفة الراجحة !!

ـــ بصرف النظر عن نوعية هذا المركز ؟!

ــ كانت الغاية عنده تبرر الوسيلة .. فمثلا كان مغرما بالحياة فى العالم الغربى بصفة عامة وإنجلترا بصفة خاصة .. لكن بمجرد تأميم الصحافة فى عام ١٩٦٠ وصدور القرارات الاشتراكية فى عام ١٩٦١ .. شرع قلمه للدفاع عن هذه التحولات بحماس لا يقدر عليه أعتى الاشتراكيين.. فقد كان حماسه للفكرة ونقيضها فى الوقت نفسه قدرة لاتقدر عليها الحرباء ذاتها .. خاصة وأنه وجد فى تأميم الصحافة فرصة لتحقيق كل أحلامه القديمة .. فلم أعد صاحبا للدار بل مجرد رئيس لمجلس الإدارة ورئيس للتحرير قابل للعزل فى أى وقت .

قفز حب الاستطلاع مع كلمات حسام :

ــ وكيف سارت الأمور فيما بعد ؟!

ــ أصبح عصام قدرى من أكبر المدافعين عن الاشتراكية و « الميثاق » .. وقام برحلات عديدة إلى دول أوروبا الشرقية .. وكثيرا ما تغنى بجمال النساء فى تشيكوسلوفاكيا والمجر وبولندا .. وكما كان عضوا نشيطا بارزا فى هيئة التحرير التى كانت أول تنظيم سياسى أنشأته الثورة .. أصبح عضوا أكثر نشاطا وحيوية فى الاتحاد القومى .. ثم فى الاتحاد الاشتراكى بعده .. ورسم لنفسه من خلال مقالاته صورة تؤكد أنه العدو رقم واحد للإمبريالية ولكل القوى المتربصة بالشعوب المكافحة والطبقات الكادحة !!

ــ وهل استمر محررا عاديا بالدار ؟!

ــ بالطبع كوفىء عن قلمه الذى أحاله إلى بوق لكل من يؤجره .. فتولى رياسة تحرير مجلة « الصحوة » لكنها فشلت وخسرت خسائر أدت إلى إغلاقها .. مما أثر على ميزانية الدار التى طلبت لأول مرة إعانة من الحكومة .. بعد أن كانت أرباحها تكاد تغرق العاملين وتكفى لإقامة مبنى جديد لها مجهز بكل وسائل تكنولوجيا الصحافة الحديثة . ولم يرض

القائمون على الصحافة فى ذلك الوقت بفضيحة ابنهم المدلل فأنشئوا له مجلة جديدة تابعة للدار باسم « المستقبل » .. وعلى الرغم من أنها كانت بلا مستقبل فقد عاشت على المعونات الحكومية !!

ـــ وماذا كان موقفك يا أستاذ عبد الحليم من كل هذا ؟! هل التزمت السلبية المطلقة ؟!

ـــ لم يكن فى يدى سوى قلمى ؟! وكان ينظر إلىَّ دائما على أننى من رجال العهد البائد .. فى حين كان عصام قدرى دائما من رجال كل عهد جديد .. فلم تكن التعيينات أو الترقيات أو الجزاءات فى يدى منذ تأميم الدار .. بل كنت أرى كل توقعات عصام وهى تتحقق تباعا .. ثم دخلت السجن لأقضى فيه سبع سنوات .. نتيجة لتهمة استطاع عصام أن يلفقها لى .. وقد قصصت عليك ظروفها من قبل ..

ـــ لكن لماذا لم يعين عصام مكانك بعد دخولك السجن ؟!

ـــ إنه لم يكن بهذه السذاجة المباشرة .. فقد أظهر سخطا غير عادى على الحكم علىّ بالسجن .. وأعلن براءتى من التهمة فى كل مكان .. ثم سافر إلى إحدى الدول العربية ليرأس تحرير مجلتها الرسمية بمرتب خيالى !!

ـــ كى يبعد الشبهة عنه تماما؟!

ـــ تماما .. لكن القيادة السياسية تغيرت .. وهو بعيد عن مصر .. وابتدأت البلاد فى الابتعاد عن المعسكر الشرقى فى محاولة للاقتراب من المعسكر الغربى .. وصدر العفو عنى وإعادتى مرة أخرى إلى منصبى ليس حبا فى سواد عينى ولكن بهدف إبراز الوجه الديمقراطى الجديد للسلطة التى ظنت أننى رجل أمريكا .. فى حين أننى لم أكن سوى رجل مصر .. ومصر فقط .. فقد كان ظنى دائما أننا فى حاجة إلى اشتراكية نابعة من ظروفنا المعاصرة وبيئتنا المحلية حتى لا نفاجأ بهوة شاسعة بين

النظرية والتطبيق قد تقع البلاد فى براثنها ونحن فى أشد الحاجة إلى مضاعفة سرعة عجلة الإنتاج والتقدم .

ـــ وكيف تمكن عصام قدرى من أن يصبح رجل العهد الرأسمالى بعد أن كان من أخطر رجال العهد الاشتراكى ؟!

أشعل عبد الحليم رضا سيجارة جديدة وقام من على مقعده وسار حتى نافذ مكتبه . ظل يتابع عمال المخازن وهم يقومون بتشوين اللفات الضخمة ثم قال دون أن يلتفت إلى حسام :

ـــ إن هذا ليس بالشيء الجديد على عصام .. لقد أنهى عقده مع المجلة العربية وأدى العمرة فى طريق عودته إلى مصر .. وكان الجميع قد ظنوا أن نهايته ستكون على يد العهد الجديد الذى أعلن مطاردته للإلحاد فى كل مكان .. لأنهم لم ينسوا تبشيره بكتاب « رأس المال » لماركس .. لكنه عاد إلى مصر وفى يده سبحة طويلة ، ورافعا ألوية الإيمان فى كل كلمة يطلقها . وسرعان ما عين نائبا لى سواء فى رياسة مجلس الإدارة أو رياسة التحرير .. وظل على هذه الحال حتى استطاع أخيرا أن يحتل مكانى نفسه .. فهل كان فى يدى أن أواجه هذا المد الكاسح الخبيث وأنا لا أملك سوى قلمى ؟!

بدأ الاقتناع الكامل على وجه حسام لكن تساؤله استمر :

ـــ لكن ماذا حدث لزوجته الإنجليزية ؟! إننى أعرف أنه أعزب منذ زمن طويل ؟!

عاد عبد الحليم رضا إلى الجلوس خلف مكتبه وإن كانت عيناه لا تزالان تمسحان جدران الدار خارج النافذة بحب متدفق :

ـــ لعلك سمعت عدة إشاعات حول هذا الموضوع .. لكن الحقيقة القديمة لا يعرفها سوى العجائز أمثالى .. كان عصام قد عاد منتفخ الأوداج بزوجته الإنجليزية وبفحولته الجنسية التى جعلتها ترضى به وتختاره

من وسط آلاف الأجانب الذين يترددون على إنجلترا .. لكن سعادته الوهمية انتهت عندما تلقى أكبر طعنة فى حياته !

اتسعت حدقتا حسام :

ــ إذا فالإشاعة كانت صحيحة إلى حد كبير ؟!

ــ نعم .. خانته زوجته الإنجليزية مع أحد عمال الطباعة الذى لم يكن يتعدى فى ذلك الوقت العشرين من عمره ..

ومضت عينا حسام داخل حدقتيها الآخذتين فى الاتساع :

ــ وماذا فعل لهذا العامل ؟!

ــ لم يفعل شيئاً ؟! فلم يشأ أن يثير فضيحة وهو فى مطلع حياته العملية .. ونظرا لأن اهتمامه كان منصبا على نفسه فقط .. فقد طلقها فى صمت .. وعندما لم تجد موردا ماليا يعينها على العيش مع هذا العامل عادت إلى بلادها بلا رجعة .. ومنذ ذلك اليوم أقسم على العيش دون زواج ، والخوض فى أعراض الآخرين كنوع من الانتقام للجرح الغائر فى عرضه والذى أعتقد أنه لم يندمل بعد .. ولا يزال يؤثر فى سلوكه وخاصة بالنسبة للصحفيات العاملات فى الدار أو اللاتى يسعى إلى تعيينهن !

مد حسام ساقيه تحت المائدة الصغيرة أمامه :

ــ فعلا .. لقد اشتكت لى نورا منه أكثر من مرة .. وكنت أتمنى يا أستاذ عبد الحليم أن تحسم موضوعها لصالحها .. فليست مكافأتها عن استشهاد زوجها الطيار فى حرب يونيو ١٩٦٧ أن يراودها عصام عن نفسها !

أرخى عبد الحليم رضا عينيه :

ــ لقد أشاع الشيطان بين العاملين فى الدار أننى أعطف عليها وأمنحها كل الحوافز والمكافآت لأننى على علاقة بها وليس لاستشهاد زوجها !!

ـــ وبذلك استطاع أن يشل حركتك من أجل مساندتها والدفاع عنها ؟!
ـــ فعلا .. كانت أية حركة منى ستزيد الطين بلّة وستؤكد إشاعاته !
ابتسم حسام متسائلا :
ـــ هل نستطيع القول بأن عامل الطباعة إياه كان الوحيد الذى استطاع إذلاله وإهانته ؟!
ـــ فعلا .. ولذلك فأنا أتوقع مصيرا مؤلما للأسطى منسى بعد أن قمت بحمايته طويلا !!
لم يتمالك حسام نفسه فاستدار على مقعده ملتفتا إلى عبد الحليم :
ـــ هل تقصد أن عم منسى كبير عمال المطبعة هو ذلك العامل المراهق الذى عشقته الزوجة الإنجليزية ؟!
نظر عبد الحليم فى عينى حسام :
ـــ هو بعينه !
ضحك حسام ضحكة مبتورة :
ـــ إنه لا يزال يتمتع بوسامة وفحولة لا بد أن عصاما يحسده عليهما .. ولن يغفرهما له ؟!
ـــ ولذلك أعتقد أن منسى سيكون خير عون لكم .. فهو رجل قوى بمعنى الكلمة .. وله كلمة مسموعة عند العمال منذ أيام الاتحاد الاشتراكى !
غطت سحابة من الحزن وجه حسام وتغلغلت وسط ملامحه الدقيقة . لأحظ عبد الحليم صمته فسأله :
ـــ هل تأثرت إلى هذا الحد بكلامى ؟! إننى لم أعهد فيك هذا الانفعال العاطفى السريع وخاصة فى موضوع لا يخصك وحدك ؟!
أجاب حسام دون أن يرفع عينيه عن مفرش المائدة الصغيرة أمامه :

ـــ تذكرت أبي وساءلت نفسي : هل كان لاستشهاده معنى في بور سعيد وهو يموت غدرا وغيلة برصاص الإنجليز دون أن يستطيع أن يطلق رصاصة واحدة من الرصاصات الثماني في مسدسه .. وهو الذى طالما علمنى أنه ليس المهم أن يعيش الإنسان أو يموت .. ولكن المهم أن يكون لحياته أو لمماته معنى ؟! لم أكن حينذاك قد تجاوزت الثانية عشرة من عمرى .. لكن كلماته لا تزال محفورة في وجدانى كأنها قيلت بالأمس .

أطفأ عبد الحليم سيجارة وأشعل أخرى وقد بدا التأثر على وجهه :

ـــ إياك أن تظن أن استشهاد أبيك كان بلا معنى .. كان ضابطا عظيما في الجيش واستشهد فداء عن وطنه .. لا يهم فى ذلك إذا كان قد قتل ألفا من جنود العدو أو لم يقتل أحدا منهم على الإطلاق ؟! ولولا استبسال أبيك وأمثاله لما ترك الإنجليز والفرنسيون بور سعيد بعد احتلالهم لها بشهرين فقط ..

ـــ ومع ذلك قالت لى أمى وهى تهدينى مسدس أبى كتذكار برصاصاته الثمانى : إن أباك مات دون أن ينتقم لنفسه أو لبلده !!

حاول عبد الحليم أن يداعب حساما للتخفيف من حدة الموقف :

ـــ إنك تذكرنى يا حسام بالأهالى فى أعماق الصعيد عندما ينذرون حياتهم للثأر مهما مرت الأيام والسنون ؟!

ـــ إننى فعلا من إحدى قرى محافظة أسيوط !

استمر عبد الحليم فى دعابته المبتسمة :

ـــ لكنك لا تستطيع أن تأخذ ثأرك من بريطانيا العظمى كلها ؟!

قال حسام فى شرود عجيب أذهل عبد الحليم :

ـــ من يدرى ؟!

ـــ لم أعهد فيك سوى المنطق والعقل الراجح ـــ ولا أحب أن أسمع

مثل هذا الكلام الذى لا ينتمى إلى مستواك الفكرى والثقافى بصلة !

استمر حسام فى شروده المتأمل دون أن ينبس ببنت شفة . بحث عبد الحليم عن كلام يملأ به فراغ الصمت الذى شحن به جو الغرفة ، فلم يجد سمع طرقات خفيفة على الباب فصاح فيما يشبه التهلل :

ـــ تفضل ..

فتح الباب وأطل منه وجه جميل جذاب لا يخلو من مسحة حزن عميق ، برغم هالة الشعر الذهبى المحيطة بالوجه الأبيض الصبوح والملامح المنحوتة من مرمر متألق . كانت ترتدى فستانا كحلى اللون بإطار أبيض كحُلل البحارة ، وحذاء أبيض وفى يدها حقيبة من نفس اللون . قالت وهى تمد يدها بالسلام :

ـــ أهلا أستاذ عبد الحليم .

ثم مدت يدها إلى حسام :

ـــ كيف حالك يا حسام ؟!

خرج من شروده المتأمل :

ـــ الحمد لله ـــ الذى لا يحمد على مكروه سواه !

جلست نورا على المقعد المواجه لحسام فلاحظ مع عبد الحليم بقايا دموع فى عينيها . وقبل أن يفتح عبد الحليم فمه بكلمة قالت له وهى تخرج سيجارة من حقيبتها وتشعلها بيد لم تخف عليهما ارتعاشتها :

ـــ عشت أسبوعا كالكابوس يا أستاذ عبد الحليم !!

رسم عبد الحليم ابتسامة على وجهه :

ـــ لا أحب أن أراك بهذا التشاؤم ؟! إنك شابة وقوية وجميلة .. وتستطيعين الاعتماد على نفسك كما كنت دائما !! وسأقف بجوارك دائما !!

ـــ لقد أصبح الآن يتحكم فى أرزاقنا !! وحضرتك تعلم أن مرتبى

ومعاش زوجى لا يكفيان مصاريف الولدين .. ولذلك فأنا أعتمد على المكافآت والحوافز وبدل السفر الذى يأتينى من بعض سفريات الجريدة .. وكل هذا أصبح تحت رحمته . ومناوراته القديمة حولى لا تخفى عنك !

حل الحزم محل الابتسامة على وجه عبد الحليم وهرش شعره الأبيض بأصابعه وهو يقول بين طيات دخان سيجارته :

ـــ لا يستطيع بشر أن يتحكم فى رزق البشر .. أما عن مناوراته فأنا أعلم جيدا أنك من القوة بحيث تستطيعين إيقافه عند حده !

تدخل حسام فى الحوار :

ـــ أنا مع نورا .. فهو لا يتورع أن يفعل أى شىء .. ولذلك فإن استمرارى فى الإشراف على صفحة الفكر الإنسانى أصبح أمراً مشكوكا فيه وخاصة أننى حللت فيه محل برعى رجله ونديمه وخادم ملذاته !

قال عبد الحليم بنفس الحسم :

ـــ إننى عندما أصدرت قرارى بتعيينك مشرفا على صفحة الفكر كنت أضع المصلحة العامة للجريدة فى الاعتبار .. فلا يعقل أن يشرف إنسان عاطل من المؤهلات والثقافة والعلم .. مهما كانت أقدميته على صفحة الفكر ونافذة القراء على الثقافة العالمية المعاصرة .. إن برعى هذا لا يجيد سوى الجرى وراء أخبار النجوم وأسرارهم الحقيقية أو الملفقة ..

قالت نورا وهى تطفىء سيجارتها بنفس اليد المرتعشة :

ـــ إن موقف حسام من صفحة الفكر يتشابه تماما مع موقفى من صفحة المرأة :

علق عبد الحليم :

ـــ وهذا أدعى لتضعوا أيديكم فى أيدى بعض وتقفوا أمامه كالبنيان المرصوص !

لم تسكت نورا :

ـــ لكن السلطة كلها فى يده .. ولن يتورع فى البطش بمن يتحداه !

ضغط عبد الحليم على مخارج ألفاظه :

ـــ ولن يكون الموقف الجديد أشد وطأة عليك من استشهاد زوجك الطيار عندما كنت حاملا فى طفله الثانى .. إنك قوية يا نورا بطبعك !

هز حسام ساقه فى عصبية :

ـــ على كل حال لن نترك له أية فرصة لإذلالنا .. وإلا فنحن لا نستحق الحياة التى نحياها ؟

كان جو الغرفة قد تحول إلى طيات خفيفة من الدخان المتماوج . فقام الأستاذ عبد الحليم وفتح زجاج النافذة فهبت سخونة مايو من الخارج وطغت على جهاز التكييف الذى سرعان ما تبدد أثره . كان عمال المخازن قد انتهوا من عملهم وجلسوا فى الساحة ساهمين على غير عادتهم . ترقرقت دمعة خفيفة فى عينى عبد الحليم رضا لكنه سرعان ما ابتلعها جفناه . وعندما استدار ليواجه حساما ونورا ، سمع دقات سريعة عالية على الباب ، وقبل أن يأذن للطارق بالدخول ، فتح الباب وأطل وجه برعى مبتسما منتشيا متسائلا :

ـــ هل نسيتم الاجتماع ؟! الجميع ملتفون الآن حول مائدة الاجتماعات فى انتظار تشريف عصام بك !!

لم يجد عبد الحليم رضا كلاما يرد به على هذا الوقح ، لكنه وجد حساما وهو ينهض ويقول متحديا :

ـــ من يسمعك يقل إنه اجتماع مجلس الوزراء ؟!

أجاب برعى بصفاقة نادرة تكاد تقفز من عينيه الضيقتين ومفرق شعره الذى يقسم رأسه إلى نصفين :

ـــ إنه اجتماع لا يقل فى أهميته عن هذا .. فسوف تتخذ فيه قرارات

مصيرية !

خاف عبد الحليم من تورط حسام فى المزيد من التحدى مع هذ الثعبان الأرقط فقال بصوت عال :

ــ سنحضر حالا يا برعى !

ــ وهو كذلك !

قالها برعى بنفس الابتسامة الكريهة ثم أغلق الباب . انتفضت العروق النابضة فى فودى حسام :

ــ لقد جاء ليتجسس علينا لحساب سيده !

هدأ عبد الحليم من ثائرته :

ــ لا داعى لهذه العصبية .. فأنت بهذا الأسلوب تمنحه أسلحة جاهزة ليستخدمها ضدك ..

لم يتحرك حسام فى وقفته ولم يرد . فربت عبد الحليم على كتفه :

ــ هيا بنا إلى الاجتماع !

انفرجت أسارير نورا :

ــ هل ستحضر معنا الاجتماع ؟!

أجاب عبد الحليم برقة :

ــ لا أعتقد يا نورا .. ومع ذلك فروحى وقلبى معكما !

ــ نهضت نورا برأس شبه منكس وسارت خلف حسام الذى دفعه عبد الحليم برقة وفتح له الباب ، لكنها لم تستطع أن تمنع عبرة ترقرقت على وجنتها اليسرى ، بعد أن نبعت من فيضان مشاعرها المتدفق فى مرارة . التفتت إلى عبد الحليم بعد أن ساروا فى الممر :

ــ يجتاحنى شعور مماثل تماما لذلك الذى أغرقنى يوم واريت زوجى الحبيب التراب !!

امتلأت قاعة الاجتماعات بالصحفيين والمحررين الذين التفُّوا حول المائدة ، فى حين كان مقعد الصدارة شاغرا . امتزجت الأحاديث بالتعليقات بدخان السجائر بهدير المطابع القادم من الدور الأسفل . دخل حسام ومعه نورا فتعلَّقت معظم العيون بهما دون تعليق أو تحية . جلسا إلى الجانب الأيمن للمائدة الطويلة فوجدت نورا نفسها فى مواجهة سهيلة بشعرها الأحمر المصبوغ ، وسحنتها ذات اللون القمحى ، وحاجبيها الرفيعين كما لو كانا مرسومين بقلم رصاص . حاولت نورا أن تتفادى من نظراتها ، لكن سهيلة رفعت حاجبها الأيمن بابتسامة ذكَّرت نورا ببرعى وقالت :

ــ ألن يحضر عبد الحليم بك الاجتماع ؟!

أجابت نورا دون أن ترفع عينيها عن منفضة السجائر المكتظة بأعقاب السجائر أمامها :

ــ علمِى علمِك !! يمكنك أن تسألى عنه !

ظلَّت الابتسامة اللَّزجة قابعة على وجهها على الرغم من التزامها الصمت . مال حسام على أذن نورا هامسا :

ــ بدأت الحرب من أول لحظة كما توقعت تماما !

نظرت إليه نورا ثم أخرجت من حقيبتها سيجارة أشعلتها وهى تحاول قدر الإمكان تفادى السهام المنطلقة من حدقتى سهيلة .. اليد اليسرى لعصام قدرى الذى يعتبر برعى يده اليمنى . نظر حسام إلى الوجوه المحيطة بالمائدة فوجد عند زاويتها اليسرى عم منسى يجلس شاردا بحلَّته الزرقاء النظيفة برغم تواجده المستمر بين آلات الطباعة وأحبارها . تذكَّر حسام قصته مع زوجة عصام الإنجليزية ، لكنه لم يشعر بالرثاء له ، فهو

رجل قوى ويضع كرامته فوق كل الاعتبارات ، ويكفيه فخرًا أنه الشاهد الوحيد الذى جرؤ فى قضية الأستاذ عبد الحليم رضا أن يقول الحق كشاهد نفى برغم كل التهديدات التى وجِّهت إليه ، بل ظلَّ يعترف بفضل عبد الحليم عليه وحبِّه له طوال فترة سجنه .

فجأة خفت ضجيج الثرثرة والضحكات والتعليقات . نظر حسام بدون تفكير تجاه الباب فوجد عصام قدرى فى طريقه إلى كرسى الصدارة وخلفه برعى يشارك السكرتيرة حمل الأوراق والملفَّات . وقف الجميع ودوَّت القاعة بالتصفيق الذى لم يشارك فيه حسام ونورا ومنسى وإن كانوا قد وقفوا حتى لا يشذوا فى لحظة لا تحتمل النشاز .

وقف عصام قدرى أمامهم يرد التحية بذراعين مفتوحتين كما لو كان على وشك أن يحتضن الجميع فى سعادة بلغت حد النشوة ، كانت المسبحة الكهرمانية الطويلة مدلاة من ذراعه اليسرى ، فى حين أسرعت السكرتيرة إلى وضع الغليون الفاخر وكيس التبغ أمامه على المائدة . تأمله حسام فلاحظ لأول مرة الصبغة الكثيفة التى تغطِّى شعره الأبيض الناحل بلون بنِّى داكن ، وشاربه الحليق الذى يحاول به أن يتصابى ويبدو أصغر من سنِّه .

ظل عصام قدرى ينحنى بذراعيه المفتوحتين مرارًا إلى أن هدأت عاصفة التصفيق التى أثارها بعض من كانوا أشد الناس تحمسًا لعبد الحليم رضا . جلس الجميع — بعد جلوس عصام — وابتسامات السعادة تتراقص على وجوه معظمهم ، فى حين نظرت سهيلة إلى معبودها نظرات زاخرة بالولَه والانبهار . نظر عصام إلى المقعد الخالى فى بداية الضلع الأيمن للمائدة ، وهو مقعده السابق فى الاجتماعات التى رأسها عبد الحليم رضا والذى أمر بتخصيصه لعبد الحليم بعد أن أصبح مجرد كاتب بالجريدة ، وقال مبتسما فى حزن للحاضرين الصامتين المنتظرين

لكلماته بعد أن أطفأ معظمهم سجائره التى لم تحترق بعد :

ــ كنت أودّ أن يكون معنا اليوم أستاذى ومعلّمى ورائدى .. أستاذنا كلنا الأستاذ عبد الحليم رضا .. وأتمنى أن يكون المانع خيرا .. فقد لا يعرف معظمكم أنه كان أستاذى فعلا فى معهد الصحافة منذ حوالى ثلاثين عاما .. ولولاه لما تعلّمت الصحافة وأحببتها .. ولذلك فأنا مدين له حتى أموت بكل الإنجازات التى حقّقتها .. وسنظل نسعى جميعا إليه طلبا للنصيحة الغالية والخبرة الطويلة العميقة الشاملة .. وإذا كنت قد تشرفت بأن أحلّ محلّه فإن سعادتى الوحيدة تكمن فى أننى سأنهض بالمهام الإدارية والأثقال البيروقراطية التى كانت تبهظ كاهله .. حتى يتفرغ هو للإبداع والابتكار والتوجيه .. مما يشكّل مكسبًا ضخما لجريدتنا العزيزة ودارنا الحبيبة .. ويكفينا أن نتابع عموده اليومى لنستفيد بفكره المتجدد الثورى دائما ..

كان حسام يتابع كلمات عصام بحنق هادر داخله فى صمت ، لكنه حرص على ألا يطفو هذا الحنق على وجهه . صمت عصام وهو يشعل غليونه المعطّر ويطلق سحابات متتابعة تلقّاها برعى بأنفه فى نشوة بالغة . مع السحابات خرج من حلق عصام سعال خفيف عابر فابتسم فى رضا :

ــ إنها العادة السيئة الوحيدة التى تعلّمتها منذ أيام دراستى فى إنجلترا .. ومع ذلك فإننى أعتبرها أرحم وأفضل من عادات سيئة أخرى !!

ابتسم برعى فى إعجاب مذهل بخفّة ظلّ سيّده ، ثم دار بوجهه على الحاضرين فبادله معظمهم الابتسام ، فى حين ركّزت سهيلة نظراتها السعيدة على وجه نورا الحزين ، فتشاغلت الأخيرة بمراقبة سيجارة لم تكن قد انطفأت تماما فى المنفضة وضغطت عليها بإصبعها الذى شعَر بلسعة كوخز إبرة . أمسك عصام بسبحته التى سمع الجميع حبّاتها وهى تتساقط فوق بعضها البعض بإيقاع رتيب يوحى بالخشوع :

ـــ إننى أبدأ عهدى بهذا الكلام عن الأستاذ عبد الحليم رضا برغم عدم حضوره لأننى أريد ترسيخ قيمة جديدة لم نعد نشعر بها فى الفترة الأخيرة .. إنها قيمة الحب والوفاء والإيمان وروح العائلة .. إننى أريد أن أحوِّل مؤسستنا إلى أسرة متحابَّة متفاهمة يحترم فيها الصغير الكبير .. أسرة تنبذ الحقد والصراع وتعتنق التسامح والغفران .. لكن هذا لا يعنى التسيُّب .. لأننى سأكون فى منتهى الحسم والحزم مع كل من تسوِّل له نفسه أن يتلاعب بأقدار أسرتنا .. إننى أوجِّه كلامى بصفة خاصة إلى الملحدين الذين لا يراعون ضمائرهم فيما يفعلون .. فقد أعذر من أنذر .. ومع هذا فأنا لا أهدِّد أحدا .. فأنا ديمقراطى بطبعى .. ولذلك لا أعتبر نفسى رئيسا لمجلس الإدارة أو رئيسا للتحرير .. وأنا أعتبر نفسى أبًا للجميع .. حتى لهؤلاء الذين يكبروننى فى السن .. فالأبوَّة الروحية ليست لها علاقة بالسن .. ولذلك أريد من الجميع أن ينادونى بالكلمة الجميلة التى حرمت منها طويلا : « بابا » فأنا كما تعلمون لم أتزوج وبالتالى لم أنجب !! لكن ما أروع الإحساس بأننى قد أنجبتكم جميعا !!

صمت عصام قدرى ليحشو غليونه وإن كان برعى يتمنى أن يقوم بهذه المهمة نيابة عنه . نظر حسام إلى عم منسى فوجد عينيه زاخرتين بالقوة والاعتداد بالنفس مع لمحة سخرية نابعة من انطباق شفتيه بطريقة ملتوية . خرج الدخان غزيرا من بين شفتى عصام الذى لمح عم منسى ، لكنه سرعان ما عاد إلى حديثه الشهى دون انتظار لتعليق أو رأى :

ـــ سأنتهى من كلامى كله أولا .. لأستمع بعد ذلك إلى آرائكم وتعليقاتكم حتى تأخذ الممارسة الديمقراطية الحقيقية مجراها العملى التطبيقى .. أريد أن أعرف كل ما يجيش فى صدوركم .. فليس هناك أبناء حقيقيون يخفون شيئًا عن أبيهم .. مهما ظنوا أن كلامهم ربما جرحه أو مسَّه .. فأنتم لا تعرفون قلب الأب .. إنه يتَّسع لكل الأبناء .. حتى

للضالّين منهم .. ومن هذا المنطلق الأبوى الشامل وليس الشمولى حتى لا يساء فهم إيمانى العميق بالديمقراطية .. سأعرض عليكم بالتفصيل استراتيجيتى الجديدة للدار كلها .. حتى ننطلق بها إلى آفاق العصر معتمدين على أحدث وسائل التكنولوجيا .. ولذلك سنستورد آلات طباعة حديثة تزيد فى سرعتها وكفاءتها وطاقتها الإنتاجية أضعافا مضاعفة عن الموجودة حاليا .. كما أنها لا تحتاج إلا إلى أقل عدد ممكن من العمال .. وسنشرع فى شراء أرض نقيم عليها الدار الجديدة .. فقد اكتشفت بعد دراسة قمت بها هذا الأسبوع أن المبنى القديم لم يعد صالحا للصحافة الحديثة ..

حاول عصام أن يسحب نفسا عميقا من غليونه المعطّر لكن جذوة التبغ كانت قد خمدت . عاد إلى إشعاله ونثر دخانه فوق رءوس الحاضرين التى وقف عليها الطير فعشّش الصمت فى أرجاء القاعة الفسيحة برغم الأنفاس الصاعدة والهابطة ، وأزيز التكييف . نظر عصام إلى السقف متأملا ثم داعب حبات سبحته قائلا :

ـــ هذا على المستوى التكنولوجى .. أما على مستوى التحرير الفكرى والفنّى .. فإننى أطالب بالتجديد فى كل شىء .. وسأعيد النظر فى الصفحات والأبواب الثابتة التى فشل المشرفون عليها فى الحصول على إعجاب القرّاء ..

سحب عصام نفَسين من غليونه باستمتاع شديد وربت على مؤخرة رأسه فى حنان ، فى حين تبادل كل من حسام ونورا نظرات سريعة سجّلتها لهما سهيلة ، أما برعى فكان فى انتظار تساقط الدرر من فم سيده .

ـــ ولكى أثبت لكم ديمقراطيتى .. فأنا لن أرهب الخاطئين .. فنحن بَشر وجلّ من لا يسهو .. ولذلك سأسامح الخاطىء الذى يعترف بالخطأ

الذى ارتكبه من تلقاء نفسه .. إن أمر الخاطئين سهل فى نظرى .. أما وضع الخطائين أو المصرِّين على أخطائهم فيختلف تماما .. فليس لهم عندى أى تسامح .. لا سيما وأنا أشترط على الخاطىء ألا يعود إلى ما ارتكبه مرة أخرى .. أما الخطَّاء فحسابه عسير .. بل أستطيع القول بأنه خارج على الأسرة ولا مكان له بيننا .. أريد لهذه الحقيقة أن ترسخ تماما فى أذهانكم حتى لا يحدث أى سوء تفاهم بينى وبينكم فى المستقبل المشرق السعيد إن شاء الله ..

صمت عصام قدرى ليبتلع ريقه ويعيد إشعال الغليون و إطلاق سحابات الدخان المعطر ، فى حين نبض أحد العروق الكامنة تحت عين حسام اليسرى ، وزاد تصلّب جسمه النحيف فوق مقعده لدرجة أن نورا شعرت به دون أن تنظر إليه . مسح عصام وجوه الحاضرين ثم قال وسط الدخان المنبعث من أنفه وفمه :

ــ هذا هو كل ما أردت قوله .. والآن أنا فى انتظار آرائكم وأفكاركم !

صفّق برعى ومعه سهيلة نشوة وإعجابا ، فصفّق معه الجميع باستثناء حسام ومنسى ، أما نورا فقد صفّقت على سبيل سد الخانة بعد أن شعرت بالتيار الجارف الذى تجاوب معه الجميع بسرعة البرق ، وكأن عبد الحليم رضا لم يكن .

رفع عصام قدرى يديه بنفس أسلوب بابا روما عندما يبارك الحشود الوافدة إلى ميدان الفاتيكان ، وانتظر أن يفتح أحد فمه بكلمة لكنه لم يلحظ سوى حركة حسام العصبية فى مقعده كأنه يريد أن يقول شيئا . وضع عصام يديه على المائدة قائلا فى ابتسامة أبوية حانية :

ــ أرى ابنى حسام يتحرَّق شوقا ليدلى بدلوه ؟!

انتقلت الابتسامات السعيدة على وجوه معظم الحاضرين ، وتركزت العيون على حسام الذى اندفع واقفا :

ـــ سيادتك فى كلامك أشرت إلى موقفك الصريح ممن أسميتهم بالملحدين الذين لا يراعون ضمائرهم فيما يفعلون .. فهل سمحت سيادتك بتحديد مفهومك عن هؤلاء .. وكيفية التفريق بينهم وبين المؤمنين فى المؤسسة ؟!

أمسك عصام قدرى بسبحته وداعب حبَّاتها الواحدة بعد الأخرى ، ثم مسح بعينيه وجوه الحاضرين تاركا السائل واقفا فى مكانه ، لكن حساما جلس بمنتهى الثقة والشجاعة فى انتظار الرد . أجاب عصام وهو يسبل عينيه فيما يشبه الوجد الصوفى :

ـــ سؤال مهم وشجاع لأنه يكشف عن التيارات السائدة فى بيتنا .. أقصد مؤسستنا .. فهى فى الحقيقة بيتنا لأننا أسرة واحدة .. والخلافات تحدث بين الأشقَّاء داخل الأسرة الواحدة .. فهى أمر طبيعى للغاية .. لكننى لا أسمح على الإطلاق بأن يتحوَّل الخلاف فى الرأى إلى صراع على السلطة .. فإن هذا من شأنه أن يهدم كياننا الأسرى من أساسه .. هل اقتنعت الآن يا أستاذ حسام ؟! أم أن هناك أشياء أخرى لديك يا بنى تريد الاستفسار عنها ؟!

رفع حسام يده قائلا بلمسة من الحرج :

ـــ لكن سيادتك لم تجب عن سؤالى بعد ؟!

أشعل عصام غليونه مع بوادر توتر ظهرت على حركة يده :

ـــ ما حكاية « سيادتك » هذه ؟! أريد لهذه الحواجز أن تزول بيننا .. لن أرد من الآن فصاعدا على أى سؤال لا أسمع فيه نداء « بابا » الحبيب !

تضاعف الحرج داخل حسام لكنه لم يشأ أن يتراجع :

ـــ لم أعرف بعد مفهوم سيادتك أو تعريف سيادتكم « للملحدين » ؟! وكيف نفرقهم عن المؤمنين ؟!

تحوَّلت حركة تسبيل العينين إلى ارتعاشة عصبية بعض الشيء . أمسك

عصام بسبحته قائلا :

ـــ تصر على تجاهل روح العائلة .. لا يهم .. فلا بد أن يتسع صدر الأب الحنون لاندفاع الأبناء بل ولطيشهم أيضا !!

توقف لحظة . أسبل عينيه مرة أخرى :

ـــ المؤمن يا ابنى هو من أضاء نور الإيمان قلبه ووجهه .. أما الملحد فهو التلميذ المطيع والتابع الأعمى للشيطان !

لم يستطع برعى أن يمسك نفسه عن الاستحسان فتأوَّه كالمجذوب :

ـــ الله !! الله !!

لم يتراجع حسام :

ـــ أنا متفق مع سيادتك تماما .. لكننى أريد أن أعرف الفروق المادية الملموسة التى تساعدنا على التفريق بين الاثنين ! فأنا على حدِّ علمى أظن أن الإيمان هو أكثر العلاقات خصوصية فى هذا الكون ! إنه علاقة بين الإنسان وربه لا يستطيع طرف ثالث أن يتدخَّل فيها !!

ألقى عصام بالسبحة على المائدة ثم دقَّ عليها بيده مما أصاب نورا بهزَّة فى أعماقها :

ـــ هذا هو كلام الملحدين والشيوعيين يا ابنى .. لا تردِّد كلامهم .. وأنا على استعداد لأسامحك إذا كنت لا تفهم معناه .. أما إذا كنت تعنيه تماما .. فلك حساب آخر معى ؟!

ذهل حسام وأسقط فى يده :

ـــ آسف إذا كنت سيادتك قد فهمت كلامى على محمل آخر !! على كل حال اعتبرنى سيادتك كأننى لم أقل شيئا !!

اجتاحه عصام كالإعصار محاولا تلقين الآخرين الدرس الأول من خلاله . تذكَّر كيف كان يتفرَّج على القرداتى فى شبابه عندما كان يدرِّب القرود فى عشش الترجمان على القيام بعجين الفلاحة ونوم العازب ، وكيف

كان القرداتي يقوم بضرب القرد إذا أخطأ فى أداء الحركات المطلوبة وسط حلقة من القرود الذين سرعان ما يستوعبون الدرس جيدا حتى لا ينالهم ما نال زميلهم . تحوَّلت وجوه الحاضرين حول المائدة الطويلة إلى قرود قابعة خلف الأقفاص فى عينى عصام وسط الدخان المنطلق من أنفه وفمه . قال بصوت منخفض كالصراخ المكتوم :

ـــ الكلام الذى يقال لا يمكن أن يتلاشى كالدخان فى الهواء .. لكننى سأسامحك على كل حال .. فأنت ابنى ومن حقِّك أن تعبِّر عن آرائك حتى لو كانت طائشة أو خاطئة ؟! فالسن لها أحكام .. ويبدو أننى نسيت !! فقد كنت فى سنِّك أكثر طيشا واندفاعا !! لكن عندما يتقدم بك العمر ستعرف قيمة الحِكَم والنصائح التى أدلى بها إليكم الآن ! إنها نتاج الخبرة الطويلة ، ولذلك أصرّ على أن يحترم الصغير الكبير .. وإلا سيكون لى معه شأن آخر !

لم يرفع حسام عينيه مما أشاع الرضا فى قلب عصام . تلفَّحت القاعة بأردية الصمت المطبق برغم ازدحامها بالحاضرين ، لعب عصام بحبَّات سبحته :

ـــ والآن .. هل من منازل آخر ؟!

ضحك برعى وابتسم البعض لكن منسى رفع يده ولم ينتظر الإذن بالكلام :

ـــ سعادتك قلت إن المؤسسة ستستورد آلات طباعة حديثة تزيد فى سرعتها وكفاءتها أضعافا مضاعفة عن الموجودة حاليا .. وأنها لا تحتاج إلا أقل عدد ممكن من العمال .. فهل أفهم من كلام سعادتك أنه سيتم الاستغناء عن بعض العمال ..؟!

أجاب عصام فى اقتضاب دون أن ينظر إليه :

ـــ بدون شك !

لم يصمت منسى :

ـــ إن خبرة عمال الطباعة فى الدار .. خبرة نادرة تتمناها الدور الصحفية فى البلاد العربية .. وأى تفريط فيها يعد خسارة فادحة للدار !!

قرر عصام أن يلقّن القرود الدرس الثانى . دقّ بيده على المائدة :

ـــ أتعلّمنى يا منسى كيف أحافظ على مكاسب الدار ؟! ألا زلت مصرًّا على القيام بدور زعيم العمال فى الدار ؟! ضع فى علمك أننى لن أسمح بقيام أى مراكز للقوى .. وكفى ما جرى للمؤسسة منها فى العهد السابق ! ومع احترامى الشديد لأستاذى ومعلّمى عبد الحليم رضا فإن القرار لم يكن قراره فى معظم الأحيان رغم توقيعه عليه .. لكن هذا لا يتنافى مع الوفاء الذى أنادى به ..وها أنا ذا أقرر أمامكم ، بل وأقرّ أننى مسئول مسئولية كاملة عن الأخطاء التى ارتكبت فى عهد عبد الحليم رضا سواء عن حسن قصد أو سوء نية .. لكننى مع هذا أعلنها مدوّية أمامكم أن القرار من الآن فصاعدًا لن يكون سوى قراركم أنتم جميعا .. فقراركم هو قرارى ..وقرارى هو قراركم ، فأنا منكم .. وأنتم منّى !!

تهدّج صوت عصام قدرى فلم يستطع أن يكمّل . فصفّق برعى ومعه سهيلة التى طفرت الدموع من عينيها ، فلم يملك الحاضرون سوى المشاركة فى التصفيق ، حتى نورا وجدت نفسها تصفّق دون أن تدرى . أما حسام ومنسى فكانا يتبادلان النظرات على البُعد لأنهما عجزا عن التفريط فى احترامهما للذات . التزم منسى الصمت متفاديا الرد على عصام ، لإيمانه بأن معركته معه لن تكون مجرد حوار تفصل فيه المائدة بينهما ؛ ولذلك ندم على تورطه فى هذا الحوار العقيم .

تأمّل عصام وجه نورا الجميل الصبوح وهالة الشعر الذهبى المحيطة به ،وتساءل فى أعماقه عما إذا كانت أرملة ساحرة مثلها تدّعى الحزن والتضحية من أجل ولديها لتخفى الجانب الطروب فى حياتها . ذكّره

شعرها الذهبي اللامع بشعر زوجته شارون . فنظر إلى منسى وشَعَرَ بطوفان من الحقد تمنَّى أن يغرق هذا المنسى حتى يلفظ أنفاسه الأخيرة . طالما تشدَّقت شارون بالثقافةوالحضارة والفكر المتحرر ، ولم يكن يدرك أن هذا التحرر فى نظرها مجرد علاقة حقيرة مع عامل مراهق مثل منسى . كلهن مخادعات ! نورا تخفى عربدتها بمسحة من الحزن وإثارة عطف الآخرين ، وشارون تخفى علاقتها بمنسى بالكتب والأسطوانات والحديث عن آخر تطورات الفكر الإنسانى ، وهو الذى كاد يظن نفسه معبود نساء إنجلترا . إذًا فالإشاعات التى ربطت بين نورا وعبد الحليم رضا حقائق ، وإلا ما سرّ عطفه المتزايد عليها وترقيتها وتعيينها مشرفة على صفحة المرأة ؟!

لاحظ الحاضرون شرود عصام لكن أحدا لم يشأ أن يقطع الصمت ، فى حين لم تسترح نورا لنظراته المتتابعة الغائمة فلم ترفع عينيها عن أعقاب السجائر التى احتشدت بها المنفضة أمامها . تنبَّه عصام على إيقاع حبَّات سبحته اللاإرادى فاصطنع الابتسام وتساءل :

ــ يبدو أنه لم يعد هناك شىء يقال ؟! ومع ذلك فمكتبى مفتوح لكم جميعا لأى رأى أو فكرة أو اقتراح أو خبر !

ضغط على الكلمة الأخيرة ثم نهض فنهض الجميع فى أعقابه فى حين التف حوله البعض فى حلقة غطَّته تماما . نظرت نورا إلى ساعتها وقالت لحسام فى طريقها معه إلى باب الخروج :

ــ لم يبق على ميعاد خروج الأولاد من المدرسة سوى ساعة .. سأسرع حتى أطمئن عليهما .. فهما الآن يؤديان امتحان آخر العام !

فى الممر الخارجى أجابها حسام :

ــ لماذا لا تتركينهما يعودان فى أتوبيس المدرسة ؟! لا داعى للقلق فهما لا يزالان فى المراحل الأولى من التعليم !

ـــ عندما تنجب يا حسام بإذن الله .. لن تقول مثل هذا الكلام ! أيضا لا تنس أننى كل شىء فى حياتهما وأريد أن أعوِّضهما عن فقدهما للأب .. فالصغير لا يعرفه إلا من صورته .. ولذلك اعتدت فى وقت الامتحان أن أقوم بتوصيلهما إلى المدرسة صباحا والعودة بهما إلى البيت بعد الانتهاء من الامتحان !؟.

شد حسام على يدها بحرارة أخوية :

ـــ حفظك الله لهما .. وأعانك على مسئوليتهما !

ابتسمت نورا شاكرة وأسرعت الخطى نحو باب المصعد ، فى حين هبط حسام على السلم إلى الدور التالى حيث القسم الذى يعمل فيه محررو صفحة الفكر الإنسانى .. حيَّا حسام الموجودين منهم فقابلوه بابتسامات الترحيب والمودَّة حتى ذهب إلى الركن القصىّ فى القاعة حيث مكتب زوجته نجلاء التى تعمل معه فى الصفحة نفسها . كانت سمراء دافئة ترتدى بنطلونا من الجينز الأزرق وفوقه بلوزة بيضاء بدوائر زرقاء فى لون السماء . أما ملامحها المصرية الصميمة فكانت تحاكى تماثيل جدَّاتها فى المتحف المصرى . نفس الخطوط المحدَّدة ، والأنف الدقيق الحاد ، والعينين الواسعتين السوداوين الناطقتين بأساطير مصر القديمة وأسرار معابدها ، والشفتين المكتنزتين حول فم دقيق . أما شعرها الأسود الفاحم فكان أقصر من شعر الصبية فى هذا الزمن بما يوحى بثورتها على الحريم ، تلك الثورة التى تجلَّت فى رفضها وضع أية مساحيق على وجهها ، والتحلِّى بالخواتم والسلاسل والأساور . لم تكن هناك فى ذراعها اليسرى سوى ساعة لا تتمشى فى ضخامتها مع ملامحها الدقيقة ، أما قوامها المنحنى على المكتب والذى يضاهى فى نحافته نحافة حسام ، فلم يمنع إبراز جمال نهديها المتطلعين إلى الأمام فى كبرياء وثقة ، ورشاقة ساقيها المتناغمتين مع جسدها الرقيق المثير .

جلس حسام أمامها فقرأت وجهه الذى اعتاد أن يقول لها كل الأحاسيس والمعانى قبل أن ينطقها لسانه . سألت :

ــ كيف كانت الأحوال فى الاجتماع ؟!

مد حسام ساقيه ونظر إلى ساعته فى سأم :

ــ كما توقعنا تماما !!

لم تندهش نجلاء بل قدَّمت إليه ملفًا صغيرا :

ــ المقالات الجديدة التى وردت إلى الصفحة !

ــ سآخذها معى إلى المنزل ! فليست لدىَّ رغبة فى تناول الغداء هنا اليوم ! هيَّا بنا لتناوله فى الخارج ! أريد أن أنطلق بعيدا عن هذا الجو الخانق !

كانت نجلاء من النوع الذى يلتقط معانى الكلمات قبل أن تنطق . كانت ثقتها فى نفسها وذكائها لا حدود لها ، وهو الذكاء الذى كان يمتزج بجمالها ورقتها فى نظر حسام فيحيلها إلى أروع امرأة متدفقة بينابيع الحب الدافىء واللماحية البراقة . إنها زوجته وحبّه وحياته وماضيه وحاضره ومستقبله . قالت مبتسمة :

ــ يبدو أنك سئمت من طعامى وقتلك الحنين إلى المطاعم ؟!

ظهرت بوادر ابتسامة على وجهه لكنها سرعان ما تلاشت :

ــ لا تنسى أن سهرنا فى الجريدة أمس قد فوَّت عليك إعداد طعام اليوم !

ــ منذ متى كنت قادرة على مواجهة دبلوماسيتك ؟!

نظر إليها فى حنان دافق :

ــ هل انتهيت من مراجعة « البروفات » ؟!

استمرت نجلاء فى مداعبتها للتخفيف مما يدور داخله :

ــ كل شيء تمام يا فندم .. كما أرسلت إلى المطبعة مقالتك التى هاجمت فيها كتاب المؤلف الذى يطالب بالاهتمام بعالم الأرواح الذى أهملناه كثيرا لاتجاهنا إلى المادة الفانية .. وكأننا انتهينا من كل مشاكل عالمنا ولم يتبق لدينا سوى مشاكل القوى الغيبية من أرواح وأشباح وعفاريت زرق وحمر !!

كانت كلمات حسام تقطر أسى :

ــ إنها مأساة فعلا يا نجلاء .. كان فكرنا فى الفترة الأخيرة يعانى من التخلف الحضارى .. وأصبح الآن يعانى من التخلف العقلى !

شعرت نجلاء أن الحوار سيزيد من كآبة حسام . لملمت أوراقها . وضعت بعضها فى حقيبة يدها والبعض الآخر فى درج مكتبها الذى أغلقته ونهضت فنهض حسام . حيا الاثنان الزملاء المتناثرين أمام مكاتبهم . وفى صمت هبط فى المصعد المزدحم بالصحفيين حيث قال أحدهم لزميله إنه سعيد بالعهد الجديد الذى بدأته المؤسسة ، لكن زميله تصفح الوجوه المتقاربة ولزم الصمت .

لفظ المصعد ما فى بطنه وسرعان ما كان حسام ونجلاء خارج الدار حيث لفحتهما سخونة مايو وشمسه المستبدة ، ومع ذلك فضلها حسام على الهواء المكيف بالداخل . ركبا عربتهما البيضاء الصغيرة وعند أول إشارة مرور قال حسام :

ــ كيف لرجل مثل عصام قدرى ماضيه معروف لنا كلنا .. أن يجرؤ بهذه الصفاقة ويرتدى مسوح بابوات روما فى العصور الوسطى المظلمة ليمنح صكوك الغفران لمن يسيرون فى أذياله ويحجبها عمن يحترمون أنفسهم وفكرهم ؟!

أجابت نجلاء والعربة تسير محاطة بالسيارات التى تكاد تحتك بها :

ــ أنت خير من يعلم يا حسام أن مأساتنا الحقيقية تكمن فى التلون

وركوب الموجة !! ولنا فى هذا أساتذة ورواد كثيرون .. ليس عصام قدرى سوى أحدهم !!

ــ آن الأوان ليعلم هؤلاء المتسلقون الانتهازيون المتخلفون الجهلاء أن السلطة الوحيدة التى تملك حق اتهام الآخرين على وجه هذه الأرض هى السلطة القضائية بناء على قرائن وشواهد محددة . أما أن يتخيل متسلق انتهازى جاهل متخلف أن فى قدرته تحديد الذاهبين إلى الجنة والساقطين فى الجحيم ، فإنه بهذا يتدخل فى إرادة الله سبحانه وتعالى ، ويرتكب جريمة الكفر الفاضح لجهله المطبق بمجال يدعى أنه من رواده وأعلامه حتى يظل على قمة الموجة الجديدة ..

ــ طالما أنك نعتهم بالانتهازية والجهل والتخلف .. فهل تتوقع منهم غير هذا ؟! كل إناء ينضح بما فيه !

ــ أنا أتفق معك تماما فى هذا ! لكن دورنا يكمن فى كشف حقيقتهم لمن لا يعرفونها .. ولذلك يجب ألا نتجاهل خطورة بذور الجهل والتخلف التى ينثرونها هنا وهناك .. فما يفعلونه أخطر بكثير مما فعله من أطلقنا عليهم مصطلح « القطط السمان » . فإذا كانت القطط السمان تلتهم أموال الشعب ورزقه فى الظلام ، فإن هؤلاء الانتهازيين المتخلفين يدمرون عقل الشعب ووجدانه جهارا نهاراً على صفحات الصحف والمجلات ..

ــ إنها مأساة فعلا يا حسام أن يقف شبابنا حائرا مشتتا ضائعا بعد أن وجد نفسه فى عالم خلا من القدوة الحسنة من جراء المحاولات المستمرة المستميتة لإطفاء كل مشاعل حياتنا الثقافية والفكرية !!

ــ ولذلك سأتوجه بكل مقالاتى القادمة إلى الشباب حتى يعرف أن مجال الفكر الإنسانى بطبيعته يخلو من أحكام الإدانة أو البراءة .. فكل

إنســـان يعتقـــد . فى رأيه الصواب .. لكن من خلال الحوار الديمقراطى الحر الناضج العلمى يمكن أن تصل الأطراف المعنية إلى أرض مشتركة فيما بينها .

بمجرد أن أكمل حسام كلمته الأخيرة دوى صوت احتكـاك بيـن الجانب الأيمن للعربة والجانب الأيسر لسيارة سوداء تسير ملاصقـة . توقفت السيارتان تلقائيا وخلفهما طابور لا نهائى يمتد إلى ميدان رمسيس . هبط حسام مسرعا ناظرا إلى عربته وحمد الله على أن الاحتكاك لم يؤثر إلا فى طلاء السيارة وفى بعض المناطق أعلى الإطارات حيث انبعج الصاج قليلا . فعل سائق السيارة الأخرى نفس الشىء ثم صرخ فى حسام :

ـــ لماذا لم تلتفت جيدا ؟! هل أصبت بالعمى ؟!

لم يكن حسام ينقصه سوى هذا ؛ لكنه تمالك نفسه قدر إمكانه :

ـــ لا تطل لسانك أكثر من هذا .. إنها غلطتك .. فأنت الذى انحرفت يسارا فى حين كنت أسير فى طريقى المستقيم !

قال الآخر بصوت متهدج :

ـــ إنك أنت الذى انحرفت يمينا !

ـــ فلنذهب إلى قسم البوليس إذا لم تقتنع برأيى !

التف المارة مع بعض أصحاب السيارات المحيطة بهما ، فى حين كانت أبواق السيارات المتوقفة تزمجر وتزأر وتصم الآذان . وقفت نجلاء خلف زوجها فى انتظار ما سيسفر عنه الحوار الساخن . تدخل أحد الواقفين :

ـــ سليمة الحمد لله .. المهم سلامتكم !

ثم تداخلت أصوات الواقفين أولاد الحلال :

ـــ لن تحصلا على شىء من ذهابكم إلى قسم البوليس !

ـــ المهم الترضية !

ـــ كل واحد يصلح خسائره على حسابه !

ـــ بسيطة .. قليل من السمكرة والطلاء يعيد كل شيء إلى حاله !

فجأة أحس المتزاحمون بمن يشق دائرتهم بعنف حتى داخلها . كان شرطى المرور القريب قد أسرع لفض الاشتباك . وجه أوامره بمنتهى الحسم إلى حسام وسائق السيارة الأخرى الذى كان يستمع فى شرود إلى تعليقات الملتفين حولهما :

ـــ إذا لم تتحركا الآن فورا .. فسأسحب رخصتيكما .. وسأحرر لكما محضرا بإعاقة الطريق العام .. فأنا لا أرى سوى بعض الخدوش البسيطة !

تساءل سائق السيارة الحانق :

ـــ وحقى ؟!

ربت الشرطى على كتفه بمنتهى الجدية :

ـــ حقك علّى أنا !!

برغم كل شيء ابتسمت نجلاء والتزم حسام الصمت . بصق السائق على الأرض قائلا بصوت عال :

ـــ إنه يوم نحس منذ بدايته !!

ثم ذهب إلى سيارته وركبها . فعل حسام الشيء نفسه مع نجلاء . وتحرك الطابور مرة أخرى فى حين تبادل السائق الحانق نظرات قاسية مع حسام الذى لم يعبأ به كثيرا . حاولت نجلاء تلطيف الجو :

ـــ هل حدث بينك وبين عصام قدرى احتكاك مثل هذا فى الاجتماع ؟!

ابتسم حسام لأول مرة ابتسامة خفيفة :

ـــ لكن لم يكن هناك شرطى لحسمه بهذا الأسلوب السريع ؟! فقد كان عصام قدرى الخصم والحكم فى الوقت نفسه !

ـــ وماذا كان موقف رؤساء الأقسام والصحفيين ؟! هل فعلوا ما فعله أولاد الحلال الآن في انهاء الصدام على الطريقة المصرية ؟!

ـــ أبداً .. التزموا الصمت جميعا باستثناء عم منسى !

ـــ وطبعا .. كانت سعادة عصام قدرى بهذا الصمت لا تقدر ؟!

ـــ إنه يعلم جيدا أن معظمهم يعتنق مبدأ : « مات الملك .. يحيا الملك » !

انحرفت سيارة أخرى إلى يسار حسام فتفادى منها بسرعة . قالت نجلاء وهى تنظر أمامها :

ـــ لن أكلمك حتى نصل بالسلامة ..

ثم مبتسمة :

ـــ الآن فقط عرفت قيمة اللافتات التى كانت تعلق فى الأتوبيسات منذ سنين عديدة . وتأمر الجميع « ممنوع التكلم مع السائق » !

قال حسام دون أن ينظر إليهـا :

ـــ سنذهب إلى مطعم قرب الهرم .. فليس هناك مكان نترك فيه العربة وسط المدينة !

انطلقت السيارة عبر كوبرى أكتوبر . قطعت نجلاء الصمت بإدارة مؤشر الراديو الذى تقيأ أغنية هابطة قبيحة ، فأسرعت إلى إغلاقه والسيارة تعلو وتهبط فى عنف فوق حفر ترابية فى الطريق المؤدى إلى الجيزة ، فى حين تراقصت بعض قطع الورق والقماش والقش المتناثرة مع الهواء من صناديق القمامة التى أكلها الصدأ . كانت على وشك أن تعبر لحسام عما يجيش بداخلها لكنها آثرت الصمت وإن لم تمنع صوتا يقول داخلها فى تساؤل جاد :

ـــ لماذا يحاصرنا القبح من كل جانب حتى كاد أن يخنقنا ؟!

— ٣ —

استيقظ عصام قدرى مبكرا على غير عادته بعد أن تسلل إلى أذنيه عواء بعض الكلاب ممتزجا بنهيق حمارين أو ثلاثة ، وخوار بعض الثيران والبقر والعجول . لم يكن يحب جو القرية عندما تتسلل إلى أنفه رائحة التراب وروث البهائم نهارا ، وعندما يطبق عليه سكونها ليلا . هذا السكون الذى يحاكى صمت القبور ، برغم عواء الكلاب وبعض الذئاب فى الأطراف النائية المحيطة بالحقول . ومع ذلك كان يزور عزبته التى اشتراها منذ سبع سنوات فى قرية القيراطيين التى تقع على الطريق بين إمبابة والقناطر الخيرية . كان امتلاك عزبة حلما قديما له منذ أن جاء من قريته فى مطلع الشباب ليغزو القاهرة . كان أبوه ناظرا لزراعة شوكت القرندلى باشا ، وكثيرا ما رآه فى صباه وهو يكاد ينحنى لتقبيل حذاء الباشا التركى . مناظر حفرت نفسها فى ذاكرته ، وبدلا من أن تدفعه إلى التعاطف مع ذل أبيه ، جعلته يتوحد مع الباشا . فكثيرا ما تخيل نفسه والياً تركياً قدم من الآستانة بناء على فرمان سلطانى ليمثل السلطان العثمانى فى مصر .

من هنا كانت نقمته على القرية وعشقه لها فى الوقت نفسه . إن الساعة التى يقضيها مع سهيلة فى الشاليه الذى يمتلكه فى العجمى أروع من عمر يقضيه بأكمله سيدا على كل ما يحيط بفيلته الصغيرة الجميلة فى عزبة القيراطيين . ومع ذلك كان لا بد أن يزورها من حين لآخر كى يرعى شئونها بنفسه حتى لا ينهبها الفلاحون والمزارعون ، وكى يمارس فى الوقت نفسه إحساس السيد الإقطاعى الذى لم يكن يقلل من استمتاعه به سوى الروح الجديدة التى دبت فى الفلاحين بعد قيام ثورة يوليو ، وتطبيق قوانين تحديد الملكية والإصلاح الزراعى . فهو لا يشعر بأى دين فى عنقه للثورة ، لقدرته على ركوب جميع أنواع الأمواج . فقد كانت أول بعثة

صحفية له إلى الخارج بفضل المستشار الصحفي للملك فاروق . ثم جاءت الثورة بأمواجها المتقلبة المتلاطمة ، فأثبت أنه ربان ماهر لأن قاربه الصغير الخاص به لم يعرف العطب أو الغرق حتى الآن ، بل تحول هذا القارب — بمرور الأيام — إلى يخت فاخر ضخم ، يتهافت الجميع للخدمة فيه .

تمطى عصام فى فراشه شاعرا بتكاسل لذيذ . لم يمتد العمر بأبيه كى يرى النعيم الذى يرفل فيه ابنه : عزبة القيراطيين التى يربى فيها العجول والدجاج ، ويبيع منها البيض والفواكه والموالح ، وشاليه العجمى الذى يضاهى أى نظير له فى الريفييرا الفرنسية ، وشقة جاردن سيتى التى حصل عليها من شقق الحراسة بأجر خيالى فى ضآلته ، ومع ذلك استطاع أخيرا أن يمتلكها مع انتشار حمى شقق التمليك ، وعندما رفعت صاحبة العمارة قضية لاستعادتها ، نجح عصام قدرى فى التشكيك فى ملكيتها لها ، بل وفى جنسيتها المصرية . وعندما خسرت القضية ، كتب مقالا طويلا على نصف صفحة يمجد فيه العهد الذى رفع الحراسات عن ممتلكات أصحابها .

كان عصام قدرى مبتسما لذكريات نجاحه المتواصل ، لكن ابتسامته زادت اتساعا عندما تذكر شقته التى اشتراها فى لندن بمساعدة أحد الأمراء العرب ، وتقع فى منتصف المسافة بين ميدان الطرف الأغر ومقر رياسة الوزارة البريطانية فى شارع داوننج . إنه الآن يمتلك شقة فى العاصمة التى كان اسمها يثير الهلع داخل من حكموا مصر فى أعقاب الاحتلال البريطانى . تثير هذه الشقة داخله إحساسا مثيرا بأنه يحتل عاصمة الإمبراطورية البريطانية التى لم تكن الشمس تغيب عنها . لكنها غابت ، وأشرقت بدلا منها شمس عصام قدرى . فى أى وقت يهبط فيه على العاصمة البريطانية ، يجد ذراعيها مفتوحتين له بشوق محرق . فهو

لا يتكلف عناء البحث عن مجرد غرفة خالية فى أى فندق .

وبحلول الأسبوع الماضى تحققت كل آماله عندما أصبح رئيسا لمجلس إدارة الدار ورئيسا لتحرير صحيفتها الأولى ، بعد أن كان ملكها غير المتوج . وعلى سبيل الحرص لم يصطحب معه هذه المرة إلى العزبة برعى وسهيلة التى يظنها الكثير من الفلاحين والمزارعين زوجته . فهم لا يعلمون أنه أقسم على عدم الزواج بعد خيانة شارون له مع منسى الذى آن الأوان كى يدفع ثمن خطيئته القديمة !

تصلب جسده فى الفراش ثم عاد إلى الاسترخاء على ظهره وهو ينظر إلى السقف الذى طلى حديثا بطلاء أبيض لامع . عادت الابتسامة إلى وجهه وهو يربط بين مهارته التجارية ونجاحه الصحفى . إن كل شىء فى هذا الوجود يخضع لقوانين التجارة وفى مقدمتها قانون العرض والطلب . ولذلك فالكاتب الناجح هو من يجيد تجارة القلم ، أما تشدقه بأنه رسالة مقدسة فليس سوى غطاء براق لفشله .

مد يده إلى الكومودينو القريب وأمسك بغليونه . قام جالسا ببيجامته الحريرية الصفراء . حشاه بالتبغ المعطر وأشعله مرسلا سحابات كثيفة حتى السقف . رأى سبحته الأثيرة بجوار المنفضة فوق الكومودينو . مد يده للإمساك بها ، لكنه سحب يده مبتسما قبل أن تصل إليها . نهض وفتح النافذة فصافحت الخضرة عينيه على مدى البصر ، وقد زانتها بقع سوداء وصفراء وبنية اللون من تناثر الأبقار والعجول بين الرعى والاجترار . أمسك بخشب النافذة بعنف ، فهو يخاف أن يحسد نفسه . خرج من الغرفة ليجلس مسترخيا فى الشرفة المحاطة بالمزارع والحقول . استرخى فى المقعد البامبو وتمطى متثائبا ، وسرعان ما كانت إحدى الفلاحات الجميلات تضع على المائدة أمامه صينية نحاسية عليها إفطاره المفضل من الفطير المشلتت والجبن الأبيض وعسل النحل والشاى . لاحظ نهديها

البضتين وهى تنحنى واضعة الصينية فابتسم راضيا :

ــ لقد كبرت وأصبحت امرأة جميلة يا زهرة ؟!

عجن وجهها بماء الخجل وقالت دون أن ترفع عينيها :

ــ كله من خيرك يا سعادة البيه !

غمرته مشاعر الرضا وأغرقته بين أمواجها . نفس الجملة التى كان أبوه يكررها منحنيا فى حضرة شوكت باشا القرندلى . جرت زهرة وهى تكاد تتعثر فى ردائها الأخضر الطويل . صب عصام الشاى فى فنجان تناول منه رشفة مع قضمة من الفطير المشلتت الممزوج بالعسل . لقد اعتاد الاقتصاد فى تناول الطعام خوفا على قوامه الرشيق ، وحرصا على إعجاب الجنس الناعم . ظل يمضغ ما فى فمه بتؤدة راضية ، ولم يقلل من سعادته سوى غياب سهيلة هذه المرة ، فهذه أول مرة له يزور فيها العزبة بعد حصوله على رياسة المؤسسة . وكان رأى برعى مستشاره الأمين الحريص ، ألا يذهبا معه إلى العزبة لعل هناك من العيون ما يتلصص ، بعد أن أصبح محطا للعيون . ومع ذلك قرر برعى إحضار سهيلة معه هذا الصباح . إنه صباح الجمعة الذى يعتقد برعى أن معظم العيون تنام إلى ساعة متأخرة . كذلك قرر برعى أن يغادر العزبة صباح السبت مع سهيلة ، على أن يغادرها عصام بعدهما بساعات إلى الجريدة . إن منصب رياسة مجلس الإدارة ورياسة التحرير يحتاج إلى احتياطات من نوع جديد . خاصة وأن الحارس الخاص المسلح الذى عين لحراسة عصام قدرى قد منح إجازة فى نهاية الأسبوع على أساس أن عصاما لن يغادر شقته فى جاردن سيتى حتى ظهر السبت . إن لكل شىء ثمنا فى هذه الحياة . إن بهجة المنصب الكبير الجديد قد دفع عصام ثمنها من حريته وانطلاقه .

سمع عصام صوت محرك عربة تتوقف خلف الفيلا الصغيرة داخل

البوابة الرئيسية للعزبة . يا لروعة برعى ونشاطه الجم المتجدد ! سمع ضحكة طويلة مشحونة بالدلال فعرف فيها ضحكة سهيلة التى سرعان ما ظهرت بشعرها الأحمر وحاجبيها المرسومين بالقلم الرفيع ، فذكرته بإحدى بنات شوكت القرندلى . نهض مرحبا ومادا يده فى حرارة لكليهما . جلس ثلاثتهم وعصام يقول لسهيلة ضاحكا متفحصا بنطلونها الأصفر الضيق :

ــ حماتك تحبك !

واصلت سهيلة ضحكتها الطويلة الممطوطة :

ــ لم تكن لى حماة إلا لمدة ستة أشهر !

شاركهما برعى الدعابة الضاحكة :

ــ وبعد ذلك تم الإفراج عنك ؟!

علت ضحكاتهم . نهض برعى وأعاد صب الشاى فى فنجان عصام حتى الحافة . ثم فعل الشيء نفسه لسهيلة ولنفسه . لم تنتظر سهيلة دعوة بل مدت يدها وقطعت جزءا صغيرا من الفطيرة وغمستها فى العسل ثم تناولتها برقة مفتعلة . لم يستغرق تناول الإفطار طويلا . وبمجرد أن أعاد عصام إشعال غليونه المعطر ، وسهيلة سيجارتها قال برعى لعصام :

ــ أمس اتصل بى الأستاذ فهيم السكرى وأبلغنى أسفه لما كتبه حسام عن كتابه « عائد من عالم الأرواح » ، واتهمه فيه بالتخلف العقلى بالإضافة إلى التخلف الفكرى !

وضع عصام غليونه الخامد على المائدة فى عصبية :

ــ كان عليك يا برعى أن تنبهنى منذ البداية حتى أمنع المقال !!

ــ سيادتك تعلم أننى لست مسئولا عن صفحة الفكر .. فقد جعلنى عبد الحليم رضا مجرد محرر فيها برغم أقدميتى التى أهلتنى أن أكون مشرفا عليها قبل حسام الذى كان فى ذلك الوقت مجرد طالب فى

الجامعة !!

ـــ لقد انتهز هذا الولد انشغالى بتولى منصبى ومسئولياته الضخمة العديدة ودس هذا المقال ليؤثر على صداقتى الحميمة بفهيم السكرى الكاتب العظيم الذى تعدت مؤلفاته المائة !

نفثت سهيلة دخان سيجارتها وهى تطرد ذبابة حامت حول وجهها :

ـــ حسام هذا لا يمثل أية مشكلة بالنسبة لنا الآن .. فكل القرارات أصبحت فى يد عصام بك .. ويمكن أن يمحى وجوده بمجرد قرار من سطر واحد !

أعاد عصام إشغال غليونه :

ـــ لا أريد أن أبدأ عهدى بقرارات مباشرة توحى بأننى أتحرق شوقا للانتقام السريع .. خاصة وأن حساما يتمتع بشعبية بين المحررين الشبان .. إننى سأبدأ بسياسة الاحتواء .. فإذا لم تأت بنتيجة .. فسنطبق سياسة الانتقام .. فأنا أريد حصر أعدائنا فى أضيق حيز ممكن ..

انتصب برعى فى مقعده :

ـــ وهل تعتقد سعادتك أن أمثال حسام من الممكن ضمهم إلى معسكرنا ؟! إنه يظن فى نفسه الفيلسوف والمفكر الوحيد الذى أنعم الله به على المؤسسة .. فى حين أن كل مقالاته حقد وعقد نفسية .. ولا تجد صدى حتى عند القلة الذين يتصفحونها !

فهم عصام ما يرمى إليه برعى تماما :

ـــ لا تخف يا برعى .. فسأعوضك عن كل الخسائر التى أصابتك فى عهد عبد الحليم رضا .. فأنا عند الوعد الذى قطعته لك فى أيام الكفاح من أجل تولى المسئولية فى المؤسسة !!

استرخى برعى فى مقعده راضيا :

ـــ إننى لم أكن أتكلم عن نفسى .. إن كل خوفى ينصب على

سعادتك .. فقد يتسبب لك هذا الولد فى متاعب قد تشوه صورتك فى بداية عهدك السعيد !

فتحت سهيلة الزرار الأول فى بلوزتها . مسحت وجهها بمنديلها وهى تنظر فى يأس إلى الشمس التى تغرق الحقول فى ضيائها الذهبى المشع . طردت الذباب الحائم حول وجنتيها الناضحتين بالعرق والعطر ، ثم عادت إلى ضحكتها :

ــ لا تخف يا برعى !! إنه عصام بك والأجر على الله ! فأنا أعمل فى صفحة المرأة تحت رياسة البنت التى تدعى نورا .. ولم أطلب من عصام بك أن أحل محلها .. فسعادتى برياسة عصام بك لا تعادلها أية سعادة أخرى !

عاد عصام إلى إسبال عينيه فى وجد صوفى :

ــ لا تنسى يا سهيلة .. أن نورا حالة خاصة .. فهى أرملة طيار شهيد ورفضت الزواج من كثيرين حتى تتفرغ لتربية ابنيها .. وإذا حاولت أن أمسها حاليا .. فسأبدو فى نظر الصحفيين والعاملين سفاحا للأرامل المجاهدات !

انتصبت سهيلة فى مقعدها وتحفزت كنمر ينوى القفز على فريسته :

ــ ومع ذلك لا تزال جميلة أنيقة جذابة فى نظر كل الرجال .. وفى مقدمتهم عبد الحليم رضا !

اشتاق عصام للإمساك بسبحته التى تركها فى غرفة النوم :

ــ إن بعض الظن إثم !

أرخت سهيلة جفونها :

ــ ربما كانت تخطط للإيقاع بك !

ــ تعرفين يا سهيلة جيدا .. أننى طلقت الزواج بالثلاثة منذ أمد بعيد !

ـــ لم أكن أقصد الزواج !
ابتسم عصام ابتسامته الراضية :
ـــ هذه قضية أخرى !
ـــ وهل يعنى هذا أنها ستحوز رضا العهد الجديد كما فازت برضا عهد عبد الحليم رضا من قبل ؟!
ـــ هذا يتوقف على تطورات الأمور .. فأنا لا أعبر الجسور قبل أن أصل إليها !
ـــ وربما عدت أنا بخفى حنين !
مد عصام يده مربتا على يد سهيلة فى حنان بالغ :
ـــ كيف تقولين مثل هذا الكلام وأنت الخير والبركة ؟!
نهض عصام واقفا فوقفا معه . قال :
ـــ سأغير ملابسى لرياضة الصباح .. فالمشى فى العزبة فرصة لا تعوض ! كنت أسير فى إنجلترا أيام الدراسة مسافات لا تقل عن أميال عديدة .. والآن أصبحت سجين السيارة .. ومنذ أيام أصبحت سجين الحارس الخاص !
ابتسم برعي فى سعادة حانية :
ـــ كان الله فى عون السيادة !
دخل عصام غرفة نومه فى حين عادت سهيلة إلى جلستها بجوار برعى قائلة :
ـــ لا بد أن نحسم كل الأمور من الآن .. وإلا جرفتنا الأحداث !
ـــ لا تخافى .. فإنه لا يستطيع أن يتحرك خطوة واحدة بدوننا !!
قالها برعى هامسا فى أذنها بسعادة ، وعينه على نافذة غرفة نوم عصام . نظرت سهيلة فى الاتجاه نفسه وهمست بدورها :
ـــ إنه لا يزال يتمنى نورا !

همس برعى بابتسامة تقطر دهاءً ساماً :

ـــ هل تشعرين بالغيرة ؟!

هل تظننى مراهقة بلهاء ؟! إننى على استعداد لمساعدته فى هذه المهمة إذا حصلت على المقابل الذى أخطط له !

ـــ إنك تلميذتى النجيبة فعلا .. لكن لا بد أن تضعى فى اعتبارك احتمال استحواذ نورا عليه إذا تم له الاستحواذ عليها !

أشارت بأصبعها إلى رأسها واستمرت فى الهمس نفسه :

ـــ طالما أن هذا على أهبة الاستعداد فلا خوف علينا !

ابتسم سعيدا :

ـــ هكذا تكون الثقة فى النفس !

كانت سهيلة على وشك أن تفتح فمها بالكلام ، لكنها لمحت عصاما عائدا إلى الشرفة فنهضت مع برعى . كان يرتدى حلة بيضاء خفيفة ، وعلى عينيه نظارة شمسية ، وتحت إبطه عصا قصيرة بنية اللون ، وفوق رأسه قبعة رمادية من القش الناعم المجدول أو المنسوج كالقماش الفاخر . قالت سهيلة فى دلال :

ـــ تبدو كاللورد تماما !

ابتسم عصام راضيا :

ـــ قد لا تعرفين يا سهيلة السر فى عصا الماريشالية هذه ..على الرغم من أننى لم أمسك فى حياتى ببندقية أو مسدس !!.. لكننى كنت مراسلا عسكريا للجريدة عند زيارة الفيلدمارشال مونتجمرى لمصر .. وتتبعته كظله فى كل تنقلاته .. ولم أنبهر بشىء فى شخصيته مثل انبهارى بالعصا القصيرة التى لم تترك ذراعه .. وبمجرد انتهاء زيارته لمصر أسرعت إلى خان الخليلى واشتريت عصا شبيهة .. وبذلك أضفت العصا إلى الغليون والسبحة !

كاد برعى أن يحتضن عصاما بعينيه :

ـــ إنها أشياء دخلت التاريخ من أوسع أبوابه !

أضافت سهيلة بالحماس المشبوب نفسه :

ـــ فعلا .. عندما يؤرخ لتاريخ الصحافة المصرية فى القرن العشرين .. فسيقف اسم عصام قدرى شامخا مضيئا لا يدانيه اسم آخر !

طفح الإحساس بالرضا داخل عصام فغمر كل شرايينه وخلاياه :

ـــ هيا بنا نزاول رياضة الصباح !

سار عصام بين سهيلة على يمينه وبرعى على يساره ، متوغلين فى ممر ترابى ضيق بين أشجار الموز والمانجو وتكعيبات العنب التى لم تنضج بعد .

قال برعى وهو يكاد يلصق كتفه بكتف عصام :

ـــ لم تر سعادتك المقالات التى أحضرتها معى ؟!

أجاب عصام وهو يرصد بعينيه الأبقار التى تقف عند خط الأفق :

ـــ سأتصفحها بعد جولتنا ! إننى لست فى عجلة من أمرى !

ـــ لكن لا بد من توصيل هذه المقالات إلى الجريدة قبل الساعة الثالثة بعد الظهر .. فالمطبعة فى انتظارها !

نظر عصام مستفسرا فيما يشبه الدهشة :

ـــ ومن سيقوم بتوصيل سهيلة إلى القاهرة غدا صباحا ؟! أنت تعرف أننى لم أعد قادرا على اصطحابها معى فى العربة ؟!

ـــ سأحضر غدا فى الصباح الباكر لاصطحابها !

قال عصام كأنه يقرر شيئا غير قابل للجدل :

ـــ أفضل أن تقوم بتوصيل المقالات والعودة للمبيت معنا .. فقد أعددت لك الغرفة العليا بكل وسائل الراحة .. والمسافة بين الجريدة

والعزبة لا تستغرق أكثر من نصف ساعة .. إذا احترقت كوبرى إمبابة !!
تدخلت سهيلة فى الحوار بدلال من تعرف قيمتها :
ــ خاصة وأن اليوم يوم الجمعة .. وليس هناك أى ازدحام فى المرور !
شاركها عصام فى الدعابة قائلا لبرعى :
ــ كما أننى أنوى أن أغلبك فى البوكر هذه الليلة كالعادة !
ضغط برعى بأسنانه العليا على شفته السفلى :
ــ آه .. نسيت صندوق الويسكى فى حقيبة السيارة !!
ربت عصام على كتفه بإعزاز واضح :
ــ لا تحمل هم كل الأشياء فى لحظة واحدة يا برعى .. سأطلب من أحد الخدم إحضاره !
سار ثلاثتهم صوب الأبقار والعجول . مسحت سهيلة عرق جبينها بمنديل صغير فى يدها فقطع عصام الصمت :
ــ اليوم حر أكثر من اللازم !
تقمصت سهيلة شخصية فتاة أرستقراطية للغاية . أزاحت شعرها الأحمر المصبوغ إلى الخلف وقالت بمنتهى الرقة المفتعلة التى خففت من وقع ألفاظها :
ــ لولا الحر والذباب والتراب لكان الريف المصرى أجمل ريف فى العالم !
أسبل عصام عينيه شارداً :
ــ لا يوجد أروع من الريف الإنجليزى .
اقترب ثلاثتهم من الأبقار والعجول ، فضبط عصام فلاحا متلبسا بضرب أحد العجول بعصا صغيرة ، وبرغم أن ضربه كان خفيفا للغاية حتى لا يدوس العجل بعض المزروعات التى لا تزال فى دور النمو المبكر ، فإن عصاما صاح متسائلا فى غضب صارخ :

ـــ ماذا تفعل يا حيوان ؟! ألا تعرف أن ثمنه أغلى منك ؟! إياك أن تضربه مرة أخرى ؟!

أجاب الفلاح متلعثما دون أن يرفع عينيه عن الأرض :

ـــ كنت أحاول منعه من ـــ

قاطعه عصام بنفس الغضب الحاد :

ـــ لا أريد أن أسمع صوتك يا حيوان ! إياك أن تفعل هذا ثانية !

صمت الفلاح وتمنى أن تنشق الأرض لتبتلعه . تساقطت قطرات التشفى من عينى عصام ثم تحرك فى تؤدة وفى معيته برعى وسهيلة . توقف لحظة وأسبل عينيه قائلا بوجد صوفى :

ـــ لم يعد حقد الإنسان قاصرا على أخيه الإنسان .. بل امتد ليشمل الحيوان الأعجم البرىء أيضا !

ـــ ٤ ـــ

دخل عم منسى العمارة الكبيرة التى تطل على نيل الزمالك بجوار فيلا أم كلثوم التى أصبحت أثرا بعد عين . الفيلا التى حزن الأستاذ عبد الحليم رضا على هدمها حزنا أشد مما لو كانت ملكه . فطالما سهر فيها يستمع إلى أغانيها الجديدة وهى فى مرحلة الميلاد . بل إن اختياره للسكن فى هذه العمارة بالذات ، كان نتيجة طبيعية لعشقه لفن كوكب الشرق ، ولكى يكون قريبا منها باستمرار . لم يحزن أحد على رحيلها مثله ، ثم اجتاحت الفيلا موجات التغيير البربرى فأصبحت أرضا فضاء .

أفاق عم منسى من هذه الذكريات عندما فتح له الأستاذ عبد الحليم رضا الباب بنفسه . كان يرتدى الروب فوق البيجاما ، والسيجارة الشهيرة لا تفارق فمه . اصطحبه بنفس الابتسامة الحانية التى تشيع جوا ممتعا من الصداقة الدافئة ، حتى الشرفة التى تطل من الطابق الخامس على الفرع

الضيق من النيل بين كوبرى الزمالك أو كوبرى مايو حاليا وبين كوبرى إمبابة . جلس منسى فى مواجهة عبد الحليم ، وبينهما مائدة صغيرة منخفضة اختفت تماما تحت أكداس من الصحف والمجلات ، العربية والأجنبية . تأمل منسى العوامات أو الذهبيات كما كانت تسمى فى العصر الذهبى لها . كانت تقف فى طابور بحذاء الضفة الأخرى من النيل . تدثرت كلها فى مزيج من التراب والصدأ والطلاء المتآكل ، حتى العوامات أو البراميل الحاملة لها أصبحت تنوء بالصدأ الممتزج بالمياه الآسنة الداكنة التى فقدت قدرتها القديمة على الانطلاق بالغرين لتوزعه على الأراضى الزراعية ذات اليمين وذات اليسار . ابتسم عبد الحليم مداعبا :

ـــ ماذا تحب أن تشرب يا منسى ؟!

ـــ أنا لست ضيفا يا عبد الحليم بك !

أطفأ عبد الحليم سيجارته فى المنفضة أمامه ضاحكا :

ـــ إننا لا نقدم شيئا للضيوف !

ـــ بيتك كان دائما ملجأ لكل المضطهدين ! جعله الله عامرا بحسك !

وقف عم عثمان بوجهه الأسمر وجلبابه الأبيض الفضفاض دون أن يفتح فمه بكلمة ، أو توحى ملامحه بمعنى معين . داعبه عبد الحليم :

ـــ إذا كان الجو حارا اليوم يا عثمان .. أحضر مشروبا مثلجا .. وإذا كان باردا احضر لعم منسى مشروبا ساخنا !

أجاب بما يشبه اللهجة العسكرية :

ـــ أمرك يا سعادة البك !

ثم اختفى فى حين داعب عبد الحليم منسى :

ـــ أنت وحظك يا منسى .. فنوع المشروب يتوقف على تقدير عم عثمان لحالة الطقس اليوم !

ابتسم منسى على سبيل المجاراة ، لكن روحه كانت تنوء بصدأ يحاكى صدأ العوامات فى النيل . بدا فى قميصه الأبيض الخفيف وبنطلونه الرمادى ضئيلا هزيلا فى مواجهة عبد الحليم رضا بجسمه الضخم العملاق . قال بعينين شاردتين :

— لقد وضعنى عصام قدرى فى مأزق لا أعرف كيف أخرج منه !

تربعت الجدية على وجه عبد الحليم :

— حكى لى حسام كل شيء . وقال لى أيضا إنه انتقم منك ظنا منه أنك أبلغتنى بتعليماته التى تنص على إطلاعه على عمودى اليومى قبل إرساله للطبع !

مسح منسى حبات العرق على جبهته بمنديل أخرجه من جيبه :

— لا أظن .. فهناك ثأر قديم ظل يتحينه حتى جاءته الفرصة أخيرا .. وأعتقد أن سيادتك عندك فكرة واضحة عن هذا الموضوع !

— هل تعتقد أنه بهذه التفاهة .. حتى يختزن فى نفسه موضوعا مثل هذا أكثر من ربع قرن ؟!

— إنه يظن أننى طعنته فى شرفه .. فى حين أننى لم أغرر بها بل هى التى غررت بى .. فقد كنت مجرد مراهق طائش جامح فى مواجهة فاتنة إنجليزية لا تعرف إذا كانت مصنوعة من المرمر أو الملبن ؟!

انفجر عبد الحليم ضاحكا :

— ألا زلت تتغزل فيها ؟! إذاً .. فأنت تستحق كل ما يجرى لك على يدى عصام قدرى !!

لم يشاركه الضحك بل استمر بالجدية المتجهمة ذاتها :

— لمّح لى ذات مرة منذ أسبوعين .. أن آدم طرد من الجنة لمجرد تفاحة واحدة أكلها !!

— هكذا بدون سبب أو مقدمات !

ـــ إطلاقا .. كان الحديث يدور حول المطابع وليس له أدنى علاقة بتفاحة آدم من قريب أو بعيد !

دخل عم عثمان الشرفة ووضع فوق المائدة الصغيرة صينية عليها كوبان من عصير المانجو المثلج ثم اختفى . أمسك عبد الحليم بواحدة قدمها لمنسى الذى تناولها شاكرا ، ولم يبدأ أو ينتهى منها إلا بعد أستاذه الحبيب .

أشعل عبد الحليم سيجارة جديدة تركها بين شفتيه :

ـــ المشكلة يا منسى أن عصام قدرى كان طول عمره كالحية الناعمة الملساء .. لا تستطيع أن تتحكم فى أى جزء فيها .. وإذا حاولت فلن ينالك منها سوى لدغة تعقبها أخرى ! إنك لا تستطيع أن ترفع عليه قضية .. فهو لم يفصلك أو يعاقبك دون وجه حق .. كل ما فعله أنه رقَّاك مستشارا لرئيس مجلس الإدارة لشئون المطابع .. صحيح أنه قصد إبعادك عن العمال تماما .. لكنه مع ذلك رقَّاك ..!!

ـــ وإذا رفضت هذه الترقية ؟!

ـــ عندئذ سيتشدَّق بالصالح العام للعمل ... وستكون أنت الملوم !! فهو الخصم والحكم فى آن واحد !

ـــ ماذا كان يمكن أن تفعل لو سيادتك فى مكانى ؟!

نفث عبد الحليم دخانا غزيرا من فمه وأنفه بجدية بالغة :

ـــ اعتدت أن أحنى رأسى للعاصفة عندما تكون عاتية .. فليس من البطولة فى شىء أن أترك نفسى أواجهها .. فمن المحتمل أن تقتلعنى من جذورى ؟!

ـــ لكن سيادتك واجهت السجن من قبل سبع سنوات ؟! فهل هناك عاصفة أعتى من السجن بعد المنصب والجاه والشهرة وحب الجماهير ؟!

ـــ كانت التهمة قد لفِّقت لى ووجدت نفسى فجأة وسط العاصفة ،

أما العاصفة فى حالتك فقد أخذت شكل الترقية !!

عاد الشرود اليائس إلى نبرات منسى :

ـــ إننى لا أستطيع أن أعيش منعزلا فى غرفة خشبية صنعت لى خصيصا فوق السطح . بعد أن عشت طول عمرى بين هدير الآلات .. إنها عملى وفنّى وحياتى .. وأنا واثق أنه سيتركنى هكذا كالكلب فوق السطح .. فالمطابع فى حاجة إلى عمال .. لا لمستشارين !

خلع عبد الحليم رضا روبه النبيذى وألقاه مستأذنا منسى :

ـــ لا مؤاخذة .. إن حر يوليو هذا العام قاتل .. ولم أعد أحتمل أجهزة التكييف بعد أن أصابتنى بالتهاب المفاصل !!

ـــ على راحتك يا فندم .. وسلامتك ألف سلامة !!

ـــ أرأيت يا منسى كيف يضيع أمثال عصام قدرى وقتنا وتفكيرنا وجهدنا فيما لا طائل من ورائه ؟!

ـــ لكننى جئت لسيادتك طلبا للنصيحة .. ولم أحصل عليها بعد !! فأنا لا أريد أن أثقل عليك كثيرا بهمومى !!

ـــ لا تقل مثل هذا الكلام .. فهمومك همومى .. ونصيحتى لك ألا تتخذ قرارًا قبل أن تتضح الرؤية تماما .. وحتى لا تندم عليه فيما بعد .. خاصة وأنه متربص بك .. وسيستغل أية هفوة تصدر منك ليقضى عليك تماما .. فلا تمنحه هذه الفرصة .. إنه يضعك فى موقف حرج حتى تفقد حكمتك واتزانك .. وبعد ذلك يتصرف معك بالقانون ولوائحه .. فعلى الرغم من فساده المعروف للجميع ـــ فإن أحدا لا يستطيع أن يوجّه إليه تهمة محددة بأدلة مادية ملموسة !!

ـــ إذًا ما قيمة القانون ؟!.. إذا كان فى إمكان أصحاب السطوة والخبث والدهاء استخدامه كسلاح لتنفيذ كل مآربهم ؟!

أطفأ عبد الحليم سيجارة وأشعل أخرى :

ـــ إن القانون ليس مجرد نصوص صمَّاء على الورق .. فالمفروض أن يكون موجودا فى عقول الناس وقلوبهم .. فإذا انحرف أحدهم فسيكونون له بالمرصاد .. أما إذا كان القانون مهمة رجال القضاء فقط ، فلن نجد العدد الكافى منهم لتطبيق القانون فى كل كبيرة وصغيرة ..وبذلك سيكون القانون تحت رحمة دهاء عاصم قدرى وأمثاله ؟!!.. ولا بد بالتالى أن ينحاز إليه ضعاف النفوس ليركبوا الموجة !! مما يمنحه المزيد من القوة فى مواجهة الشرفاء !

سمع جرس الباب الذى سرعان ما فتح .. وبعد لحظات كان حسام يقف بباب الشرفة . نهض عبد الحليم واحتضنه مرحبا ، ثم شد على يد منسى فى حرارة وجلس بينهما فى مواجهة السور الحديدى للشرفة . ابتسم عبد الحليم :

ـــ لم يلتئم شمل الأحباب منذ زمن بعيد !!

ابتسم حسام وهو يفتح زرار قميصه الأعلى طلبا للهواء :

ـــ حفظك الله لنا دائما !

سأله عبد الحليم بوجهه الباسم ذى المدخنة القابعة فى فمه وأنفه :

ـــ أرجو أن يكون كل شىء على ما يرام ؟!

ـــ يجتاحنى إحساس أن هذا العام لن يمر على خير !!

سأله عبد الحليم فى قلق لأول مرة :

ـــ ماذا حدث ؟! لا أحب أن أستمع إلى هذه النغمة اليائسة .. فإذا وقع الشباب ضحية لليأس .. فلا أمل فى مستقبل البلاد كلها ؟!

أجابه حسام مركزا عينيه على صندل يحمل أحجارا ضخمة ويشق طريقه أسفل كوبرى مايو محدثا صوتا مثل صفارات الإنذار التى لم تسمعها مصر منذ حرب أكتوبر :

ـــ أمس طلب عصام ملفات الخدمة لكل أعضاء عصابته .. وكذلك

ملفات نورا ونجلاء وعم منسى وملفى أنا بالطبع !!

أطفأ عبد الحليم سيجارته مع انتشار الدهشة فى وجهه :
ـــ أفهم أن يطلب ملفاتكم ليجد فيها ثغرة ضعف يحاول الوصول منها إليكم والنيل منكم .. أما أن يطلب ملفات مجموعته فهذا ما لا أفهمه ؟!
دخل عم عثمان دون أن يحدث صوتا ووضع كوب المانجو المثلج أمام حسام ثم اختفى بنفس الصمت . ابتسم حسام وداعب عبد الحليم :
ـــ وكيف عرف عم عثمان أننى أريد عصير مانجو ؟!
ضحك عبد الحليم فى اقتضاب :
ـــ ومن قال إنك تملك حق الاختيار مع عم عثمان ؟! إن القرار هنا فى يده ! هكذا عوّدنى منذ ثلاثين عاما !! والآن أظنُّك تعلم جيدًا السر فى إصرارى الدائم على المطالبة بتطبيق الديمقراطية على كل المستويات ! فما عانيته من دكتاتورية عم عثمان ليس بالشىء الهيِّن ؟!
ضحك ثلاثتهم ضحكات صافية لأول مرة . صب حسام نصف الكوب فى جوفه الملتهب ثم عاد إلى جديته :
ـــ علمت أن عصام قدرى طلب ملفات عصابته كى يحذف منها كل مستندات لفت النظر والإنذار والخصم وغير ذلك من الجزاءات التى زخرت بها ملفاتهم فى عهد سيادتك !!
أشعل عبد الحليم سيجارة جديدة بعصبية بدت فى طريقة إمساك أصابعه بها :
ـــ حتى يتحركوا بمنتهى الحرية .. وينفذوا كل خططه التى لا بد أن تهدم الدار فى النهاية على رأس من فيها ؟!
ترك منسى صمته :
ـــ المسألة ليست مجرد معركة بينى وبينه .. فهى مخطط شامل لجعل

المؤسسة كلها خاتما فى إصبع عصام قدرى .. وإذا لم نتحد ونتماسك فى جبهة واحدة .. فلا بد أن يجرفنا التيار !!..

طفحت نبرات اليأس فوق ألفاظ عبد الحليم :

ـــ لأول مرة أشعر بالعجز عن مقاومة التيار .. يبدو أننى شخت بالفعل ؟! فإذا نصحتكم بالحكمة والتروى فربما أضعت عليكم الوقت المناسب لخوض المعركة .. وإذا نصحتكم بالهجوم والعنف فربما تسببت لكم فى متاعب أسوأ بمراحل من متاعبكم الآن ؟!

لم يسترح حسام لنظرات أستاذه الحائرة الشاردة :

ـــ إننا نستمد العزم والشجاعة والحزم منك دائما .. فلا تتركنا بهذه البساطة فى منتصف الطريق !!

استدرك عبد الحليم عائدا إلى حسمه القديم :

ـــ تعبيرى الصريح عن حيرتى ليس سوى دعوة منى لكم لنشارك جميعا فى النصيحة وإبداء الرأى .. وفى اعتقادى أن سلاح الديمقراطية خير وسيلة لتحقيق مكاسبنا دون عنف قد يبتلع الجميع فى دوامته .. صحيح أن ثمار الديمقراطية بطيئة .. لكنه لا يوجد أشهى منها عندما تنضج ..

تساءل حسام فى اقتضاب حاسم :

ـــ كيف ؟!

ـــ بتوعية العاملين فى المؤسسة حتى لا ينخدعوا بمناورات عصام ومناوراته التى تستهدفهم فى المقام الأول !!

لم يستطع حسام أن يمنع نفسه من استئناف التساؤل :

ـــ وهل يمكن استخدام سلاح التوعية الديمقراطية فى مواجهة ديكتاتور فاشى يظن فى نفسه القدرة على منح صكوك الغفران لضعاف النفوس ، والدائرين فى فلكه ، والمتعبِّدين فى محرابه ، فى حين يعتقد أن فى يده مفتاح أبواب الجحيم .. يفتحها وقتما يشاء على كل من يعارضه

أو يحاول تعريته على حقيقته أمام الآخرين المخدوعين فيه !!

غابت الشمس وبزغت أضواء المصابيح الصفراء محاطة بهالات من ذرات التراب الناعم على جانبى النيل ، الذى كادت العوامات أن تختفى فيه لولا الأنوار الهزيلة المنبعثة من نوافذها وشرفاتها . خرج صوت عبد الحليم هادئا مع دخان سيجارته الجديدة :

— إننى لا أحبِّذ العنف على الإطلاق .. فالعنف لا يلد سوى العنف .. وهو نار لا تحرق سوى صاحبها فى النهاية إذا لم تجد ما تلتهمه !!

— تعلَّمت من قراءاتى فى تاريخ الثورات أن صوت الرصاص لا بد أن يدوِّى إذا ما أصبحت كل المسالك الديمقراطية مسدودة !!

— هذا على مستوى الدول والشعوب أما على مستوى المؤسسات والأفراد فالأمر يختلف تماما !!

— فليسمح لى أستاذى بالاختلاف معه فى هذا الرأى .. فالقوانين التى تحكم هذا العالم واحدة .. سواء على مستوى الدول أو الشعوب أو المؤسسات أو الأفراد !..

— لا داعى لتضييع الوقت فى هذا الجدل النظرى .. المهم الآن هو تكوين جبهة من الشرفاء لمواجهة هذا المد الخطير .. وسأساعدكم بكل قوَّتى .. فضميرى يؤنبنى من الآن لأننى لم أكوِّن هذه الجبهة المتماسكة فى أثناء رياستى .. كنت أظن أن استغراق كل واحد فى عمله ، خير وسيلة للنمو والتقدم .. لكننى أدركت خطئى الآن .. وأرجو ألا يكون بعد فوات الأوان .. ولا بد من سياج يحمى الخير ضد كتلة الشر ..

كان منسى يتابع الحوار بمنتهى الشغف الذى غلَّف كلماته :

— إننى الآن لا أفعل شيئا على وجه التحديد .. ولذلك سأتصل بالعمال وسأعرف كيف أكتِّلهم ضدَّه .. إنهم كلهم أبنائى وإخوتى

ولا يردُّون لى طلبا ..!!

حذَّره عبد الحليم فى أبوة حانية :

ـــ لكن ضع عيون عصام فى اعتبارك دائما .. فلن يتركوك تتحرك بحرِّية ! فكل خطواتك ستكون أولا بأول عنده .!.

ـــ إن المعركة آتية لا ريب فيها ! وقد بدأها بالفعل .. وسأعلِّمه أننى لم أكن جبانًا فى يوم من الأيام .. إن كرامتى أغلى من حياتى ..!!

تساءل حسام بلهجة تشوبها بعض المرارة :

ـــ وماذا لو فشلنا فى تجميع الشرفاء .. إن كل واحد فى زمننا هذا يريد أن ينجو بجلده .

أجاب عبد الحليم بنفس النبرة الأبوية :

ـــ وحتى لو فشلتم على أسوأ الفروض .. فإن عصام قدرى ليس مخلَّدًا .. فإنه يمكن أن يجد نفسه خارج المؤسسة بين يوم وليلة !!.

لم يكن اقتناع حسام كاملًا :

ـــ ليس فى حالة عصام .. فقد استقرَّت به الأمور بعد أن دانت له تماما .. فهو خير من يحصِّن نفسه ضد العزل أو الإقالة !.

ـــ لا أحب أن يكون شاب مثلك بهذا التشاؤم !

وضع حسام ساقا على ساق هزَّها فى عصبية :

ـــ أنا لا أرى الأمور بمنظار أسود .. فالواقع المظلم يغنى عن ارتداء منظار من هذا النوع !!

لم يسترح منسى لجو التوتر الذى ساد الحوار بين عبد الحليم وتلميذه :

ـــ سنفعل ما نصحتنا به سيادتك .. والباقى على الله !

علَّق عبد الحليم مبتسما لكل منهما :

ـــ ضع يدك فى يد حسام .. آن الأوان كى نطبِّق المبدأ الذى أهملناه

كثيرا !

تساءل حسام :

ـــ تقصد سيادتك : يد الله مع الجماعة ؟

ـــ فعلا .. .

ـــ لو كنا طبقناه فى عهد سيادتك .. لكان فى إمكاننا أن نحاصر عصام وعصابته ونمنعهم من التسلل إلى قيادة المؤسسة ؟!

ـــ أنا لا أحب البكاء على الأطلال .. فالماضى انتهى بخيره وشره ولا نستطيع أن نستعيد منه لحظة واحدة .. أما الحاضر فملكنا تماما ونستطيع أن نصنعه كما نشاء من أجل مستقبل أفضل ..

استمر حسام فى تساؤله :

ـــ مهما كانت العقبات والعوائق ؟!

ـــ الإرادة الحديدية تدكّ الجبال !.

دقَّ جرس التليفون وسرعان ما جاء عم عثمان حاملا إياه فى سلَّة معدنية أنيقة حيث وضعه على المائدة الصغيرة أمام عبد الحليم قائلا فى اقتضاب شديد :

ـــ عصام بيه !

ثم اختفى فى لمح البصر . نظر عبد الحليم نظرات لها معنى لكل من حسام ومنسى ثم رفع السماعة على أذنه فى سأم واضح :

ـــ آلو .. عصام بك .. أهلا وسهلا .... أبدًا .... لم يعد لدىَّ شىء أفعله سوى القراءة والكتابة .... شكرًا .... لم تعد صحتى تحتمل السهر خارج البيت ....

صمت عبد الحليم لحظات متتابعة أشعل فيها سيجارة جديدة ، وهو يستمع إلى صوت عصام المتدفق فى بلاغة وقوة وضحت فى نبراته ، برغم أن حسامًا ومنسى لم يتبينا الكلمات الكامنة وراء هذه النبرات . أجاب

عبد الحليم والدخان يخرج مع زفير طويل :

ـــ لم يعد لذهابي إلى المكتب أى معنى .. يكفينى أن أرسل عمودى اليومى الذى تتفضّل أنت بمراجعته ...

قالها عبد الحليم وهو يغمز بعينه اليمنى مبتسما لمنسى الذى بادله الابتسام .استأنف كلامه :

ـــ إن المؤسسة أمانة فى عنقك .. وإذا كنت تؤمن بأنك تلميذى فعلا كما تقول .. فأرجو ألا تفرِّق فى المعاملة بينهم .. فهم كلهم إخوتك وأبناؤك .. وقد اكتشفت من خبرتى الطويلة فى الصحافة أن أى رئيس مجلس إدارة أو رئيس تحرير حاول أن يوجد فرقة أو هوة بين العاملين .. كان هو أول من يقع فى هذه الهوة وتبتلعه تماما ..

صمت عبد الحليم والتشفى ينضح على ملامح وجهه وعلى زفير الدخان الطويل من أنفه ، مستمعا إلى الصوت الذى تحولت قوته إلى تشنج على الطرف الآخر . قاطعه عبد الحليم بهدوء :

ـــ إننى لا أحب الوعظ .. فلو كان الوعظ مجديا لأصبح البشر ملائكة منذ زمن بعيد .. ولذلك فإن كلامى من منطلق خبرتى الطويلة العملية !!.............. على كل حال .. لا أعتقد أننى سأتردد على مكتبى فى الفترة القادمة .. لأننى سأقضيها فى الإسكندرية للاستجمام .. وربما سافرت إلى أوربا لاستشارة بعض الأطباء .... بيتى مفتوح لك فى كل وقت .... أهلا وسهلا ... سلام عليكم .

وضع عبد الحليم السماعة فى سأم متزايد :

ـــ لا يزال يظن فى نفسه القدرة على احتوائى !! يريد أن يفقدنى كل أسهمى عند تلاميذى وأحبَّائى !! يتصور أن فى إمكانه اللعب بجميع الأطراف المعنية ؟! لكننى لقَّنته درسا لا بد أن يعيه جيدًا !..

عادت المرارة إلى نبرات حسام :

ـــ إن الكرسى الذى جلس عليه أعماه عن رؤية كل الحقائق .. ولذلك أتوقع أن يتحوَّل فى المستقبل إلى ثور هائج داخل محل للخزف والصينى !..

حاول عبد الحليم التخفيف من مرارته :

ـــ إذًا لا بد أن تذهب إلى أسبانيا لتجيد مصارعة الثيران !

استمر حسام بنفس الجدية :

ـــ المشكلة يا أستاذ عبد الحليم أن هذا النوع من المصارعة لا بد أن ينتهى بمقتل الثور أو المصارع !.

دهش عبد الحليم لجديته :

ـــ كنت أداعبك ! أصبحت تأخذ الأمور بجدية مبالغ فيها !

نظر حسام إلى النيل المظلم أمامه ، وهالات التراب الناعم المحيطة بالمصابيح الصفراء وقال فيما يشبه المناجاة :

ـــ عندما يكون مصيرنا معلَّقا بهذا الشكل .. فإن روح الدعابة تأتى بأثر معكوس تماما !..

ـــ ٥ ـــ

ـــ أريد أن أقابله اليوم بأى حال من الأحوال !

كانت نورا تدخن بشراهة وهى تتحرك فى منتهى القلق والعصبية فى مواجهة مكتب سكرتيرة عصام قدرى التى سألتها :

ـــ هل هناك ميعاد سابق ؟!

ـــ ليس هناك ميعاد سابق .. لكن الموضوع لا يحتمل أى تأجيل !.

ـــ على كل حال لم يصل عصام بك بعد .. فهو لا يصل عادة قبل العاشرة والنصف أو الحادية عشرة .. انتظرى على أية حال .. ربما أذن لك بالمقابلة .

جلست نورا فى مواجهة السكرتيرة . لم تكن فى كامل أناقتها كعادتها .لم تضع أية مساحيق على وجهها الذى أحاط عينيها بهالات سوداء أكَّدت الليلة التى سبقتها مسهَّدة . بدت الرعشة واضحة على أصابع يمناها وهى تطفىء السيجارة فى المنفضة أمامها . كانت الغرفة خالية وساكنة سكونا ضاعف من الوحشة التى تنهش نورا من الداخل ، فى حين اختلست السكرتيرة النظر إليها من حين لآخر . فجأة دخلت سهيلة ببنطلون أبيض يكاد يتمزق فوق فخذيها ، وداخله بلوزة حمراء بخطوط سوداء ، تضاهى احمرار شعرها وحاجبيها المخطوطين كشعرتين دقيقتين . هجمت على نورا واحتضنتها مقبِّلة . جارتها نورا مكرَهة . سألتها وهى تتشدَّق بلبانة تواكب إيقاعاتها حركات حاجبيها الصاعدة الهابطة :

ــ خيرًا .. هل من خدمة يمكن أن أؤديها لك عند عصام بك ؟!

أجابت نورا فى اقتضاب دون أن تنظر إليها :

ــ شكرًا ..

ــ على كل حال أنا فى الخدمة دائما !

ثم التفتت إلى السكرتيرة وقالت بدلال :

ــ وحياتك عندما يشرِّف عصام بك المكتب .. أبلغينى فور وصوله .. فهو يريدنى فى أمر فى غاية الخطورة !.

ــ أمرك !.

خرجت سهيلة سعيدة مبتهجة تكاد تقفز فى مشيتها على الأرض . دخل أحد السعاة حاملا بعض أعواد البخور التى أخذتها منه السكرتيرة ثم انصرف . دخلت المكتب الكبير تاركة الباب مواربا . بعد لحظات هلَّت رائحة البخور الهندى من الباب الذى عادت السكرتيرة وأغلقته جالسة مرة أخرى إلى مكتبها . لا تعرف نورا لماذا تشعر بالاختناق عندما يتسلل

البخور الهندى إلى أنفها وعينيها ؟! لكن لا بد من الصمودحتى تعرف موقفه منها بالضبط ! إن ما فعله معها لا يعنى سوى أنه يريد القضاء عليها خطوة بخطوة !.

هربت نورا من أفكارها السوداء بتأمل محتويات الغرفة ، فجذب انتباهها تمثال من الفخار الرخيص يصوِّر نمرًا ينشب مخالبه فى جسد غزال رقيق . شدَّت عينيها من التمثال فرأت الساعة الصغيرة على المكتب تعلن العاشرة والنصف ، ثم سمعت صوتًا خارج الغرفة يقول :

ـــ القهوة يا محمد !..

كان صوت عصام قدرى . انتفضت السكرتيرة واقفة ومعها نورا . دخل عصام فرأى نورا . تقدم منها هاشًا باشًا وسلَّم عليها بحرارة أدهشت السكرتيرة . مسح جسدها بعينيه فى ثوان :

ـــ خيرًا يا بنتى !! لم أرك من قبل فى مكتبى !!

غمرت أمواج الحرج نورا فتلعثمت :

ـــ جئت فى موضوع عاجل .. حلّه فى يد سيادتك !!

ـــ قلبى ومكتبى مفتوحان دائما لكل أبناء المؤسسة .. كلهم أبنائى .. هكذا علَّمنى أستاذى عبد الحليم رضا .

قالها وهو ينظر إلى عينى نورا الجميلتين المجهدتين محاولا استخراج أثر تلميحه منهما . لكنه لم ير سوى الإحباط واليأس والخوف فانتشى بأحاسيس اشتاق إليها منذ زمن بعيد . أخيرا جاءت على قدميها دون أن يستدعيها أو حتى يرغمها على المجىء . شعر بحرجها المتصاعد ففتح بابه :

ـــ تفضَّلى !!..

ـــ لا يصح !..

انحنى انحناءة فارس مهذب :

— لا يمكن .. السيدات أولا !

دخلت نورا وهى تكاد تسقط حياء وخجلا على الأرض . أغلق الباب . جلس إلى مكتبه وهو يداعب حبَّات سبحته . جلست أمامه نورا دون أن ترفع عينيها . تأمل شفتيها المكتنزتين واشتهى تقبيلهما ، لكنه أسبل عينيه مستغرقا فى حالة من الوجد الصوفى ، ومستمتعا برائحة البخور الهندى التى عبقت بها كل نسمة فى الغرفة . لكن نورا قاومت إحساسا عاتيا بالاختناق . استمرأ حرجها وصمتها فعاد إلى تأملها دون أن يفتح فمه بكلمة . تداركت نورا الموقف حتى لا يزداد حرجا :

— فوجئت هذا الشهر بأن المكافآت والحوافز قد منعت عنِّى تماما ، وسيادتك تعلم جيدًا ظروفى .. وأن مرتبى لا يكفى للصرف على ولدىّ اللذين ليس لهما عائل فى الدنيا سواى !.

أسبل عصام عينيه فى غاية التأثر :

— إن كلامك هذا صدمة عنيفة لى .. كيف يفعلون هذا بك ؟! فى حين أن زوجك من شهداء الوطن ؟! هل هذا هو الأسلوب الذى يردُّون به جميله المعلَّق فى عنق الوطن إلى الأبد ؟!

انحسر الحرج داخل نورا فى مواجهة دفقات الذهول :

— كنت أظن أن الخصم قد تمَّ بناء على تعليمات من سيادتك ؟!

علت دقات السبحة بين أصابعه :

— وهل يبلغ بك سوء الظن هذا الحد ؟! هل هناك ثأر قديم بينى وبينك ؟! لو كنت تعلمين مكانتك الأثيرة فى قلبى لما قلت مثل هذا الكلام ؟!

وضع عصام يده اليمنى على قلبه مسبلا عينيه . لم تدر نورا ماذا تقول ؟! لم تعرف إذا كان صادقا أم كاذبا ؟! صحيح ما قاله عنه عبد الحليم رضا : حيَّة ملساء لا يمكن الإمساك بها !. اندفعت

بقولها :

ـــ أرجو من سيادتك إصدار الأمر برفع هذا الخصم !!

نظر إلى وجهها المرمرى الجميل فى شبه تغزل . تذكَّر وجه مطلقته الإنجليزية فقال :

ـــ أنت تأمرين .. فالكل رهن إشارتك !!

عاودها الحرج وأحاط بها من كل جانب :

ـــ العفو يا فندم ..

قاطعها مداعبا إياها فى حزم :

ـــ لا أحب هذه الرسميات ، لقد طلبت من جميع العاملين مناداتى بـ « بابا » .. هذا النداء الأثير إلى قلبى !.

كانت نورا على وشك أن تفتح فمها ، لكنه تجاهلها :

ـــ أما فى حالتك أنت بصفة خاصة .. فإننى أريد أن تنادينى باسمى عاريا من كل ألقاب يمكن أن تقف حاجزًا بينى وبينك !.

شعرت بالحية الرقطاء تجذبها بأنيابها من ملابسها متوغِّلة بها فى الأحراش المرعبة . قالت دون أن ترفع عينيها :

ـــ كل ما أرجوه من سيادتك .. هو رفع الخصم !! وسيكون جميلا فى عنقى أبد الدهر !!

استمتع عصام بلذَّة الخنوع فى سلوكها :

ـــ طالما أننى على استعداد لتلبية أى رغبة لك .. فأرجو أن يكون هذا الإحساس متبادلا بيننا !.

ـــ إننى على استعداد أن أشقى ليل نهار من أجل مستقبل ولدىَّ !.

أشعل عصام غليونه . استرخى فى مقعده الجلدى الأسود الوثير ، دار به نصف دائرة ثم عاد إلى مواجهة نورا ، وهو يطلق سحابات الدخان المعطر فى وجهها ، فامتزجت بالبخور الهندى وغمرتها بإحساس مخيف

بالاختناق . داعب حبّات سبحته :

ـــ إذا كان النهار قد خلق للشقاء ، فإن الليل خلق للمتعة !.

حاولت أن تبحث عن كلمات ترد بها فلم تجد . لم ينقذها من الصمت الخانق الرهيب سوى دخول الساعى الذى وضع قهوة الصباح وكوب الماء المثلج أمام عصام الذى سأل نورا :

ـــ ماذا تشربين ؟!

أجابت فى اقتضاب لم يسترح له :

ـــ شكرًا .. فلن أضيّع وقتك أكثر من هذا !

أومأ برأسه للساعى الذى خرج وأغلق الباب خلفه . نهضت نورا وهى تمد يدها بالسلام . لم ينهض عصام بل ضغط على يدها أكثر من اللازم وهو يدعوها إلى الجلوس مرة أخرى ، لكن إصرارها جعله ينهض بدوره :

ـــ أرجو أن تتكرر هذه الزيارة .. فالأب يستمتع دائما بصحبة أبنائه !

كان لا يزال يضغط على يدها ، فسحبتها وألقت آخر ما فى جعبتها :

ـــ إن الله يرد الجميل للذى يعمل لطفلين يتيمين أضعافًا مضاعفة !.

كانت عيناها مغرورقتين بالدموع نتيجة لدخان البخور والغليون ، لكنها فى هذه اللحظة انهمرت على وجنتيها واستدارت للرحيل ، وسرعان ما ضغط عصام على الديكتافون آمرا السكرتيرة باستدعاء حسام السيد إلى مكتبه فورًا . مسحت نورا دموعها فى دهشة من استدعاء حسام بهذا الشكل وعلى مسمع منها ، وهى تعرف جيدا أن العلاقة بينهما متقطعة تماما . لاحظ عصام تباطؤها لكنها أسرعت خارجا !

كيف لأرملة جميلة مثلها أن تصر هذا الإصرار العجيب على إنقاذ كبريائها برغم المحنة التى تمر بها ؟! فى حين أن زوجته الإنجليزية قدمت جسدها مجانا لهذا المنسى ؟! فى الوقت الذى كان لا يزال فيه فى ريعان شبابه ، ومستقبل الصحافة مفتوح أمامه على مصراعيه ؟! إن هذه الدنيا

مليئة بالألغاز !! ود لو قابلها صدفة فى السنوات الأخيرة التى زار فيها لندن ! تمنى لو اصطحبها إلى شقته التى يمتلكها بالقرب من مقر رياسة الوزارة البريطانية ! إنها لا يمكن أن تمتلك شقة مثلها برغم أنها فى بلادها وفى عقر دارها ! فهى لم تكن أكثر من ممرضة فى مستشفى حقير !! وفى مصر انتهزت أول فرصة لتعود إلى أصلها الوضيع وتصبح عشيقة لعامل مطبعة لن يرحمه فى الأيام القادمة بعد أن وقع فى قبضته مع باقى خصومه القدماء !! صحيح أنه حاول أن يصادق ابنة عضو فى مجلس العموم ، كانت زميلته فى معهد الصحافة الذى درس فيه عندما أرسل فى بعثة دراسية أوصى بها المستشار الصحفى للملك فاروق ، لكنها تملصت منه برقة ودبلوماسية ، وإن كان قد شعر باحتقارها الدفين له ! لم ينقذه من هذه الصدمة سوى ترحيب الممرضة شارون التى عرفها بعد اجراء عملية المصران الأعور له ، والتى فتحت له قلبها ، وقدمت له كل خبرتها وفنها فى معاملة الرجال وإشباعهم . لم يعد قادرا على الاستغناء عنها ، لدرجة أنه عرض عليها الزواج فوافقت ، برغم عدم انطباق مبدئه الريفى الأثير عليه والذى يحتم عذريتها قبل أى شيء آخر ، لكنه تذرع بالروح الأوربية ، وبانبهار المصريين به عندما يعود إلى مصر وفى ذراعه زوجة إنجليزية مثل النبلاء وأبناء الطبقات الإقطاعية والارستقراطية . وبالفعل تم له ما أراد . وكانت فرحته لا توصف عندما كان الأصدقاء والمعارف يتجمهرون حول زوجته ، يعلمونها العربية ثم يستمتعون بسماع ألفاظها العربية المتكسرة . لكن الخنزير الذى اعتاد حياة الوحل ، لا يحتمل لبس الحرير مدة طويلة . فسرعان ما تناهى إلى سمعه أنها تخونه مع أحد عمال المطبعة المراهقين . وعندما تحرى عن حقيقة هذه الإشاعات ، لم يظفر من أحد بإجابة شافية ، فاضطر إلى مفاتحتها فى الموضوع على أساس أنه مجرد إشاعة لا أساس لها من الصحة ، لكن الصدمة كانت بمثابة رصاصة

نثرت مخه ذات اليمين وذات اليسار ، عندما أكدت له ببساطة قاتلة أنها حقيقة واقعة لأنها وجدت عند منسى الإشباع الذى افتقدته عنده ! دفعته بيئته الريفية المترسبة داخله إلى قتلها وقتل عشيقها ، لكن حرصه على حياته ومستقبله جعله يستنكف التضحية بهما من أجل عاهر ومراهق يمكن أن يحاسبه فيما بعد ! وبالفعل طلقها فى هدوء ، فلم تستطع أن تعول نفسها بنفسها مما اضطرها فى النهاية إلى هجر عشيقها والعودة إلى بلادها ، مما أثار فى داخله بعض أحاسيس التشفى الممتعة ! ومع مضى أكثر من ربع قرن على هذه الأحداث ، فإن شيئا منها لا يزال يتفاعل فى صدره ومخه . لا يعرف كنهه تماما ، لكنه يدفعه دفعا إلى الاستحواذ أو الاعتداء على كل أنثى يقابلها ! فلا يعقل أن تكون كل النساء شريفات ما عدا شارون ؟! حتى نورا ، مهما تظاهرت بالكرامة والشرف والكبرياء ، فلا بد أن ينالها فى النهاية . وإلا كان من المفروض أن يصبح منسى رئيسا لمجلس الإدارة ورئيسا للتحرير ، وهو مجرد عامل مطبعة ملوث بالأحبار والرصاص ؟! إن المعايير لا يمكن أن تظل مقلوبة بهذا الشكل المستفز ، وإذا استمرت على ما هى عليه فسيعيد إليها توازنها قهراً وقسراً !

انحسر سيل أفكاره المتدفق على صوت دقات خفيفة على الباب أعقبها فتحه ودخول حسام بقامته المديدة الرفيعة ، وخطوته الزاخرة بالحيوية التى تقترب من العصبية والتوتر . فوجىء حسام بالغرفة الأنيقة الفسيحة وقد تشبعت برائحة البخور والتبغ ، لكنه ركز تفكيره تماما فيما سيثار بينه وبين عصام قدرى الذى نهض مرحبا ومسلما على حسام بحرارة بالغة ، ثم أجلسه أمامه وأمسك بحبات السبحة ، يلعب بها الواحدة بعد الأخرى مثل كلماته التى يخرجها منمقة مرتبة أنيقة هادئة :

ـــ لعلك تعلم يا بنى كم أحب الشباب .. فهو الأمل والمستقبل .. ولذلك سأكلمك كأب يخاطب ابنه الذى لا بد أن يستفيد من نصائحه

النابعة من خبرة طويلة عميقة .. فهناك إشاعات تحاول إظهارك بمظهر الملحد الذى يحاول هدم القيم الدينية !!

شعر حسام أن المعركة جاءته بأسرع مما توقع فلم يسكت :

ــ وهل سيادتك تصدق أية إشاعات تتناثر حول أى إنسان ؟!

أشعل عصام غليونه فى تؤدة واضحة . نظر إلى السقف ثم أسبل عينيه وأطلق الدخان المعطر صافيا نقيا من فمه وأنفه :

ــ بالطبع فأنا لا أصدق الإشاعات .. فهى مغرضة فى معظم الأحيان .. لكن عندما تتحول الإشاعات إلى تقارير مصحوبة بالأدلة والبراهين .. فإن تجاهلها يصبح أمراً غير مقبول !!

تحرك حسام فى المقعد الوثير الضخم بعصبية :

ــ ومن الذى قدم هذه التقارير لسيادتك ؟!

أجاب عصام بلهجة تمزج التهديد بالأبوة :

ــ هذا السؤال ليس من حقك !! فهو من صميم عملى الذى لا أحب أن يتدخل فيه أحد .. خاصة لو كان شابا مثلك فى بداية الطريق !!

ركز حسام فكره لدرجة جعلته أذنا مصغية وعقلا واعيا :

ــ لم أقصد التدخل فى صميم عمل سيادتك .. لكن من حقى أن أعرف الأدلة والبراهين التى نهضت عليها هذه التقارير !

تركت الأبوة مكانها للتهديد المقنع الناعم فى كلام عصام :

ــ إن مقالك الذى نقدت فيه كتاب « عائد من عالم الأرواح » للأستاذ فهيم السكرى تضمن هجوما على الدين .. كما اتهمت فيه الأستاذ السكرى بالتخلف العقلى بالإضافة إلى التخلف الفكرى .. ولا شك أن المسئولية النهائية تقع على عاتقك بحكم أنك المشرف على صفحة الفكر منذ أن عينك فيها عبد الحليم رضا . فهل هناك أدلة وبراهين

أقوى من هذه ؟!

صمت عصام متأملا حساما الذى بدا وكأنه يبحث عن كلمات وأفكار يكون منها رداً . انتهز عصام فرصة صمته واستأنف :

ــ لقد انتهزت انشغالى بتولى منصبى ومسئولياتى الضخمة العديدة وقمت بدس هذا المقال للتأثير على صداقتى الحميمة بفهيم السكرى الكاتب العظيم الذى تعدت مؤلفاته المائة !

بمجرد أن صمت عصام ليلتقط أنفاسه ، اندفع حسام هادراً :

ــ إن المقال موجود ومنشور .. وليس فى حاجة إلى تحريات .. فهو غاية فى الموضوعية .. فكيف لا أتعرض بالنقد لكاتب يطالب بالاهتمام بعالم الأرواح الذى يرى أننا أهملناه لاتجاهنا إلى التكالب على المادة الفانية .. وكأننا انتهينا من كل مشاكل عالمنا التى نعرفها جيدا ونقف أمامها شبه عاجزين .. ولم يتبق لدينا سوى مشاكل القوى الخفية من أرواح وأشباح وعفاريت زرق وحمر ؟!

التقط حسام أنفاسه اللاهثة فلم يشأ عصام أن يقاطعه حتى يدلى بكل ما عنده :

ــ إننا لا ولن نعلم شيئا عن عالم الأرواح .. فهو فى علم الله عز وجل .. والملحدون حقا هم من يدعون العلم بما لا علم لهم به على الإطلاق .. فهم يحاولون مشاركة الله عز وجل فى علمه .. كما أنه ليس من حق أحد أن يتهم الآخرين بالكفر والإلحاد والزندقة .. فهو حكم لا يصدر إلا من الله .. وعلاقة الإنسان بربه علاقة خاصة للغاية وليست تحت رحمة الآخرين كى يخوضوا فيها بإلقاء التهم جزافا !! ويكفى أن نسألهم : من أين أتيتم بهذه السلطة التى انتهت بانتهاء حكم بابوات روما فى العصور الوسطى عندما كانوا يمنحون صكوك الغفران للراضين عنهم ، ويحكمون بالجحيم على الغاضبين عليهم !! لقد انطلقت

الشعوب الأخرى إلى الفضاء الخارجى والكواكب الأخرى .. فى حين قنعنا نحن بتبادل الاتهامات بعد أن تحولنا إلى قضاة ومتهمين !! بلا سلطة قضائية أو دليل اتهام !! أما فى البلاد المتحضرة فليست هناك ثمة علاقة بين الاختلاف فى الرأى وبين أحكام الإدانة أو البراءة !!

أمسك حسام عن الكلام حتى لا تجرفه الحماسة أكثر من هذا . نظر إلى عصام فرآه غاية فى الإنصات الممزوج بارتعاشة خفيفة فى جفنه الأيمن . ران الصمت وعندما طال أكثر من اللازم تساءل عصام فى هدوء :

— إذاً .. فأنت ضد علم الروح ؟!

أدرك حسام فى الحال هذه المحاولة الجديدة لاستفزازه :

— إن « مع » أو « ضد » غير ذى دلالة فى هذا الموضوع !!

— أتقصد أن كلامى لا يحمل أية دلالة أو معنى ؟!

— لم أقصد هذا على الإطلاق .. لكننى أفسر الموضوع من وجهة نظرى العملية والعقلانية ؟!

— أتتهمنى أنا أيضا بالجهل والتخلف العقلى ؟!

— أنا لا أتهم أحدا .. فليس هذا من حقى !! وإن كان كلامى لا يعبر عن أفكارى بأسلوب صحيح .. فأفضل لى أن ألتزم الصمت !!

ضغط عصام على مفتاح الديكتافون وطلب من السكرتيرة أن تستدعى برعى فورا . تعجب حسام لهذا السلوك المفاجىء ، ولكنه سرعان ما فسره على أنه يريد شاهدا يسجل ما يدور ، ولذلك قرر أن يتسلح بكل أساليب الدهاء التى تعلمها على يدى عصام قدرى نفسه .

عاد عصام إلى لهجته الأبوية :

— يا بنى .. لا بد أنك تعرف جيدا أننى خائف تماما على مستقبلك .. وكان فى إمكانى أن أمنع مقالاتك كلها من النشر .. لكننى حرصت على علاقة الأب بأبنائه .. فإذا سرت على نصائحى وأصبحت

ابناً باراً بأبيه فستحصل على الشهد كله .. أما إذا آثرت النشاز والتطرف فذنبك على جنبك .. فهناك حملة تطهير متوقعة للصحافة .. ولن أستطيع أن أفعل لك شيئا إذا وجدت نفسك فجأة موظفا بمصلحة البريد أو مصلحة المجارى !! إن الإنسان الواعى العاقل هو من يستفيد من أخطاء الآخرين ! فأنا الآن مثلا استفدت من أخطائك التى أوحت إلى بسلسلة مقالات سأحذر فيها القراء من مخاطر العلم الحديث ..الذى لم يجلب لأصحابه سوى القلق والتمزق والضياع والتشتت والتفتت ، وكانوا هم أول من اعترفوا بهذه المأساة .. يكفى أن تعلم — إن كنت لا تعلم — أن أعلى نسبة للانتحار توجد الآن فى بلد مثل السويد !

صمت عصام راضيا عن علمه وثقافته . كان حسام على وشك أن يقول إننا لم نتمكن بعد من أبجديات التكنولوجيا .. فكيف نخاف من مراحلها النهائية المتجددة التى بلغتها تلك الدول ؟! لكنه آثر الصمت لشعوره أن كل كلمات عصام أصبحت فخاخا مفتوحة له للإيقاع به .

فجأة فتح الباب ودخل برعى مبتسما بعينيه الضيقتين ، سعيداً بمفرق شعره الذى يقسم رأسه إلى نصفين. انحنى مسلما على عصام فى حين احتضن حساما فى حرارة بالغة ، وجلس قبالته دون أن يسأل عصاما عن السبب فى استدعائه . قال عصام لبرعى مداعبا حبات سبحته :

— كنت أنصح حساما بالتعقل ونبذ الأفكار المتطرفة التى يبثها الآخرون فى عقله .. وذلك حتى لا يقع ضحيتها فى النهاية !!

ربت برعى على شعره الملتصق برأسه :

— سيادتك نعم الأب الناصح الحنون .. رئيس غيرك كان من الممكن أن يطرده طرداً من صفحة الفكر .. خاصة وأن أقدميته لا تؤهله لهذا الإشراف !!

أحس حسام بنسيج العنكبوت يلتف حوله ، فآثر الصمت حتى يلم بأبعاد المخطط الذى يتم رسمه على مرأى منه . قال عصام وهو يشعل

عود بخور جديداً بدلا من المحترق :

ـــ إننى لا يمكن أن أعمل شيئا من هذا القبيل يا برعى .. فحسام مهما جرى هو فى النهاية ابنى !!

أضاف برعى بنفس اللهجة الحانية :

ـــ كنت أتكلم عن رئيس غيرك .. أما سيادتك فأنا أدرى بحب قلبك الكبير للجميع .. فأنا مثلا من أقرب الناس إلى سيادتك .. ومع ذلك لم تصدر قرارا باعادتى للإشراف على صفحة الفكر التى كنت مشرفا عليها قبل حسام . فأنا نفسى لم أطالب بحقى الذى كان مكتسبا أصلا ..

أدرك حسام فى الحال أن الضربة الأولى ستوجه لإشرافه على الصفحة ألتى جعل منها ملتقى الأقلام الجادة المثقفة ، بعد أن كانت زاخرة بالأخبار التافهة والأفكار الهزيلة المريضة تحت إشراف برعى الذى لم يقرأ كتابا واحدا فى حياته ، فى حين أن الكتب التى ألفها حسام تعدت العشرين . فكر سريعا فأدرك أن عصاما سينفذ ما قرره من قبل مع برعى ، وأن الدفاع عن الصورة الحضارية المبهرة التى كونها للصفحة لن يجدى . قال دون أن يوجِّه كلامه إلى أى منهما :

ـــ إن الصحافة فى نظرى رسالة .. وليست مجرد مناصب أو وظائف .. وإن كان المؤمن برسالة على استعداد للتضحية بحياته من أجلها .. فمن باب أولى على استعداد للتنازل عن أى منصب أو مركز !

ساد الصمت لكن برعى شعر بحاسته السادسة ، بالضيق الذى يعتمل داخل عصام ، فانتهز الفرصة للدفاع عن سيده والبطش بخصمه :

ـــ إن الذين يرفعون شعارات المثالية ينقسمون إلى فريق من اثنين : فريق يتخفَّى وراء المثالية منتظرا أية فرصة تسنح له فيبطش بخصومه .. وفريق يتصوَّر أنه مبعوث العناية الإلٰهية لإنقاذ الكون من الدمار والخراب . وهذا الفريق لا يعرف الفرق بين المثالية وبين الرعونة وجنون العظمة .. ولا يعلم أنه

لا يوجد من يستمع إليه أو يلتفت إليه !.

استرخى عصام فى مقعده ودار به نصف دائرة سعيدا بقدرة برعى على الجدَل . عاد بمقعده مواجها حسامًا ومنتظرًا ردَّه . تأكد حسام أن الدائرة تضيق حوله ، فقرر أن يبطش بهذا اللزج وليكن ما يكون :

ــ لست أنا الذى يرفع شعارات المثالية .. فالفكر عندى سلوك قبل أى شىء آخر .. والأقوال لا تنفصل عن الأفعال وإلا فقدت كل معنى لها .. كما أننى لا أملك أية سلطة كى أبطش بخصومى .. فكل سلاحى الذى أملكه لا يزيد على عقل وقلم .. ولم أتصوَّر نفسى فى يوم من الأيام مبعوثًا للعناية الإلـٰهية .. إذ أننى لا أستطيع أن أزاحم البعض فى هذا التصور المجنون !!

صمت حسام فتذكر عصام كيف كان يشاهد القرداتى فى شبابه وهو يدرِّب القرود فى عشش الترجمان على القيام بعجين الفلاحة ونوم العازب ، وكيف كان يضرب القرد إذا أخطأ فى أداء الحركات المطلوبة وسط حلقة من القرود الذين سرعان ما يستوعبون الدرس جيدا حتى لا ينالهم ما نال زميلهم ، إنها السياسة المثلى بعد أن فشلت سياسة الاحتواء . استجوبه كوكيل نيابة يخاطب متهما :

ــ بمن تقصد « البعض » ؟!

ــ لا أقصد أحدًا وإنما أتكلم بصفة عامة !

ــ تظن نفسك ذكيا ودبلوماسيا ؟! لم يولد من يستطيع أن يتحدَّى عصام قدرى ! حتى عبد الحليم رضا لم يستطع الصمود أمامه !! من أنت حتى تتكلم بهذه الوقاحة ؟! هل لأننى فتحت لك صدرى ؟! إن نصائح عبد الحليم رضا الذى تزوره يوميا تقريبا لن تنفعك ! فهل نفعته من باب أولى ؟!

توقف السيل المتدفق من فم عصام ، فوجد حسام نفسه وهو يقف تلقائيا دون تفكير ، إذ لم يعد من المعقول أن يصفه بالوقاحة ثم يجلس انتظارا للمزيد من الإهانات . لم يعبأ عصام بوقوفه :

ـــ لقد أعذر من أنذر !!

تساقطت قطرات التشفى من بين أسنان برعى الصفراء . تكلم حسام بهدوء كاتم للعاصفة المشتعلة داخله :

ـــ هل تسمح لى سيادتك بالاستئذان ؟!

كان عصام مندفعا بقوة الطرد الذاتى :

ـــ هذا السلوك المهذب أحب أن يكون فى الأمور الجوهرية .. وليس فى مجرد الاستئذان وغيره من الشكليات !

انحنى حسام بأدب بالغ وخرج مؤثراً الانحناء للعاصفة ، وعاملا بنصيحة عبد الحليم رضا . سار فى الممر شاعرا بأن تفكيره قد أصيب بالشلل . هبط على السلم إلى القسم الذى يعمل به فوجد نجلاء تجلس فى منتهى القلق مع نورا التى بدت على وجهها بقايا دموع وفى عينيها المنكسرتين آثار حمرة . ارتمى على الكرسى المواجه لنورا مجهدا مرهقا محبطا دون أن يفتح فمه بكلمة . رآه بعض المحررين المتناثرين على المكاتب العديدة المتراصة فى القاعة الفسيحة ، فارتسم الأسى على وجه أحدهم ، فى حين تجاهل آخر النظر إليه تماما ، بينما أسرع ثالث خارجا ، أما المحررة التى كانت تقبع فى الزاوية البعيدة فقد تظاهرت بقراءة جريدة فى حين كانت عيناها مركزتين على ثلاثتهم . تركته نجلاء ليهدأ للحظات ثم سألته والتوتر ينهشها من الداخل :

ـــ لماذا استدعاك يا حسام ؟!

ـــ كل توقعاتنا كانت فى محلها !!

تدخلت نورا فى الحوار بتلقائية شاردة موجهة لنجلاء :

ـــ ألم أقل لك ؟! إن الأمور لن تمر على خير !!

ارتعشت شفتا نجلاء المكتنزتان مع حركة عينيها الواسعتين السوداوين . مسحت شعرها القصير بيدها اليسرى التى لا تحمل سوى خاتم الزواج :

ـــ كنت أفكر جديا فى أن نسافر للعمل بالصحافة فى أية دولة عربية حيث المال الوفير والجو الهادىء والزملاء الذين سبقونا إلى هناك ! إننا نحارب معركة خاسرة معه ! فسرعان ما أصبح التيار ضدنا .. ولا قبل لنا به !

قالت نورا متسائلة بنفس الشرود التلقائى :

ـــ وهل تتركانى هنا بمفردى مع الذئاب ؟!

سأل حسام زوجته مندهشاً :

ـــ ما الذى جعلك تغيرين رأيك هكذا فجأة بعد طول إصرار عليه ؟!

ابتسمت ابتسامة عابرة ضاعفت من دهشة زوجها :

ـــ يبدو أن ولى العهد قد قرر أن يشرفنا أخيرا ؟!

شاركتها نورا الابتسامة العابرة لكن حساما تساءل فى حيرة :

ـــ ماذا تقصدين بـ « يبدو » هذه ؟! ألست متأكدة مما تقولين ؟!

ـــ هذا الأسبوع شككت فى الأمر .. لكن الأسبوع القادم سنتأكد من كل شىء !!

تساءل حسام فى حيرة متزايدة :

ـــ وما علاقة احتمال الحمل بسفرنا إلى الخارج ؟!

ـــ حتى يولد ابننا فى جو هادىء طبيعى .. أما الصراعات المستمرة والمتزايدة التى بدأت منذ أن تولى رياسة مجلس الإدارة والتحرير .. فيمكن أن تقضى علينا كلنا وليس على طفلنا فقط !

لم تتخلص نورا من شرودها :

ـــ إنها لمصيبة أن أجد نفسى أحارب هؤلاء الذئاب دون سلاح !!

ربتت نجلاء على يد نورا الممدودة على المكتب :

ـــ يمكنك أن تأتى معنا !! فإن خبرتك الصحفية مطلوبة فى أى مكان !!

ـــ وماذا عن ولدى ؟! كما أننى يمكن أن أواجه نفس الطامعين .. فالتخلف واحد .. والعقلية متشابهة !!

حسم حسام الحوار كعادته :

ـــ إذا كان أبى قد استشهد برصاص الإنجليز .. وقدم روحه فداء لوطنه .. فلا يصح لابنه أن يهجر هذا الوطن لمجرد صراعات وظيفية .. كما أن عصام قدرى ليس مخلدا كما قال الأستاذ عبد الحليم .. أنت تعرفين يا نجلاء أننى محارب بطبعى .. ولا أتخلى عن موقعى بسهولة !!

ـــ إذاً .. لا بد من دفع الثمن من أعصابنا وراحتنا ووقتنا وجهدنا !

ـــ إنها مجرد زوبعة فى فنجان .. مهما كانت قاسية وعنيفة .. فلن يصح إلا الصحيح فى النهاية !

شردت نجلاء وكأنها تستكشف الأفق البعيد :

ـــ أرجو أن تمر الزوبعة على خير !

لم يجد حسام ومعه منسى ونجلاء ونورا خطة سوى تنفيذ نصيحة عبد الحليم رضا بخصوص تعبئة الرأى العام فى الدار ضد عصام قدرى وعصابته ، وذلك بكشف ألاعيبه وتعرية أهدافه ومحاولاته لتحويل العاملين كلهم إلى قطيع يأتمر بأمره ، على أن ينفرد بعد ذلك بمن يشذ عن القطيع . لكنهم لم يتصوروا أن خيبة أملهم ستكون بالبشاعة التى شعروا بصدمتها حتى النخاع . صحيح أن معظم العاملين ، سواء فى التحرير أو الإدارة أو المطابع أو الإعلانات ، يرزحون تحت أعباء وضغوط يومية تكاد تجعلهم ينحنون حتى تلامس جباههم الأرض التى يسيرون عليها ، لكن حساما ظن أن هذه الأعباء والضغوط ستكون حافزا لهم كى يقفوا بالمرصاد لمن يريد إلغاء ما تبقى من كيانهم داخل الدار . من هنا كان ذهوله من روح اللامبالاة بكل المتغيرات التى جرت منذ سيطرة عصام قدرى على مقدرات المؤسسة . قال له أحد الذين كانوا متحمسين لعبد الحليم رضا : ليس لنا خيار فيما يجرى ! وعلينا أن نتعامل بطريقة أو بأخرى مع أى رئيس جديد للمؤسسة ! فليس لنا عيش خارجها ! وقال آخر محاولا تقمص روح الدعابة : لن أنطح الصخر حتى لا ينكسر قرنى ! وادعى ثالث الحكمة : لا فائدة من البكاء على اللبن المسكوب ! فعبد الحليم رضا لن يعود كما أن عصام قدرى لن يرحل ! ونصحه رابعهم وكان أكبرهم سنا : انتبه لنفسك .. ولا تدس بأنفك فى شئون الآخرين .. لا تحمل هم الدار فأنت لم ترثها عن أبيك .. حتى عبد الحليم رضا الذى أنشأها من ماله الخاص تنازل عنها راضيا دون ضجيج !! أما خامسهم فلم يرد سوى بابتسامة بلهاء لا تعنى شيئا .. وربما عنت كل شىء !!

أما منسى فأحس أن العمال الذين تجاذب معهم أطراف الحديث ، كأنهم غرباء لم يعملوا تحت رياسته وإشرافه سنوات طويلة . تعلل أحدهم أكثر من مرة أن هدير الآلات لا يمكنه من سماع ما يقوله ! واستشهد آخر بالحكمة التى تعلمها على يد أبيه فى البيت : من يتزوج أمى فلا بد أن أناديه بعمى ! وقال ثالث : لم يتبق لى سوى سنة وأخرج على المعاش .. فلنترك هذا للشباب ! وكانت نصيحة الرابع : لقد أصبحت مستشارا بعيدا عن هدير المطابع الذى يجلب الصمم .. ورصاصها الذى يصيب الرئتين .. فلماذا تجلب الهم والمتاعب لنفسك ؟! أما الخامس فكان صريحا للغاية : لم أحصل على أى امتياز فى عهد عبد الحليم رضا . ولن يكون عصام قدرى أسوأ منه !!

وتساءل منسى فى نهاية جولته الفاشلة : هل كان عصام قدرى يدرك تماما أن تعيينه مستشارا له لشئون المطابع سيعزله بهذا الشكل عن العمال الذين كانوا يرون فيه الأب الروحى والأخ الحميم لهم ؟!

أما نجلاء فقد بدأت زميلاتها فى التهرب منها ، لدرجة أن إحداهن لم تستمع إلى بقية حديثها وتركتها هاربة إلى دورة المياه حتى لا يراها عصام قدرى معها . فقد كان فى تلك اللحظة يخترق الممر المؤدى إلى مكتبه وفى أعقابه برعى وسهيلة ، ولم يخف عليه هرب المحررة من نجلاء ، وسعد له أيما سعادة . وتذكر بإعزاز شديد أسلوب قرداتى عشش الترجمان فى تدريب القرود على نوم العازب وعجين الفلاحة .

أما نورا فتحركت وتحدثت بتحفظ ودبلوماسية فى أول الأمر ، لكنها عندما لمست فشل محاولات حسام ومنسى من نجلاء ، آثرت الصمت والسلامة خوفا على ولديها من خطوة محتملة قادمة ، خاصة وأن عصام قدرى قد ضاعف من ضغوطه عليها ومنع سفرياتها إلى الخارج ، وهى السفريات التى كانت تقتطع من بدل السفر فيها قدر إمكانها حتى توفر

لولديها بعض العملة الصعبة التى تمكنها من شراء بعض لوازمهما ، بعد أن أصبح الجنيه المصرى عاجزا عن شراء بعض الضروريات التى تباع على أرض بلده . فقد كان هناك مؤتمر عالمى للمرأة فى المكسيك ، ورفض عصام قدرى الموافقة على سفرها بحجة ضغط المصروفات التى زادت على حدها المعقول فى عهد عبد الحليم رضا . وفى الوقت نفسه تابعت نورا بدهشة بالغة محاولات سهيلة معها لضمها إلى معسكر عصام بك مقابل عودة كل المكافآت والحوافز والتسهيلات والسفريات أضعافا مضاعفة إليها . لكن نورا التزمت الحذر والحيطة . فقد كانت متأكدة من نوعية المقابل الذى يتحتم عليها أن تدفعه ! ولذلك صمدت أيضا لمنعها من السفر ، وضاعفت نشاطها فى بعض المجلات النسائية التى كتبت فيها مقالات وتحقيقات صحفية دون أن توقع عليها باسمها ، إذ أن هدفها الأساسى من هذا تمثل فى مجرد تعويض النقص الذى أصاب دخلها الشهرى على يدى عصام قدرى .

تحولت خيبة أمل حسام إلى ذهول عندما لاحظ أن التقليعة التى سادت مؤخرا بين معظم المحررين والصحفيين قد تمثلت فى تدخينهم الغليون ذى التبغ المعطر ، وإمساكهم بالسبح العاجية والكهرمانية الجميلة ، بل إن بعضهم من ذوى الشعر الأبيض لجأ إلى صبغة بنفس اللون الذى يستخدمه عصام بك ، وتفنن البعض الآخر فى تكرار بعض الألفاظ المفضلة فى حديثه ، وإسبال العينين على طريقته عندما يتناولون موضوعا عاطفياً أو حساساً .

أصابت حسام لسعة ندم . فقد كان على حق عندما قال لعبد الحليم رضا إن سلاح التوعية الديمقراطية يفقد حدته وفاعليته فى مواجهة ديكتاتور فاشى يملك كل السلطات فى يده ، ويسعى إلى تحويل العاملين معه إلى قطيع رهن إشارته . وزاد من لسعة ندمه ، أن حماسه قد أنساه التزام

الحرص الذى أوصاه به عبد الحليم حتى لا ترصده عيون عصام . كان حسام يسعى إلى إحداث أكبر أثر ممكن فى أقل وقت ممكن لشعوره أن الوقت لم يكن يمر لصالحه . لكن الأثر جاء عكسيا تماما ، فقد عجز حتى عن مجرد إقناع بعض زملائه بإرسال برقيات يشكون فيها للمسئولين فى الدولة من الأوضاع الجديدة التى أهدرت كيان الدار ، وكيانهم بالتالى . كذلك كانت عيون عصام بالمرصاد لتحركات حسام ومنسى ونجلاء بصفة خاصة . وكان عصام من الدهاء بحيث تركهم يتحركون فى حرية كاملة لمدة كافية حتى يمسك عليهم بالدليل المادى ما يمكنه فيما بعد بالبطش بهم واحدا بعد الآخر . وبالفعل توالت الضربات .

صدر قرار رئيس مجلس الإدارة بأن تؤول رياسة الأقسام والإشراف على الصفحات إلى أكثر العاملين فيها أقدمية . كان ظاهره العدالة ووضع الأمور فى نصابها ، لكن باطنه كان طعنة مباشرة إلى حسام . فلم ينطبق إلا عليه ، وفى لحظة عاد برعى إلى الإشراف على صفحة الفكر الإنسانى بكل جهله وتفاهته وسطحيته . ولم يكن هذا يعنى سوى منع مقالات حسام بطريقة غير مباشرة فمن حق برعى أن يمنع دون أن يكون من حق حسام مناقشته السبب . أدركت نجلاء أن الدوائر تضيق حول زوجها ، وعادت إلى إلحاحها على السفر إلى أى بلد عربى للعمل فى صحافتها ، وخاصة بعد أن تأكد حملها الذى مضى عليه الآن شهر . وبدأ حسام فى الاقتناع بوجهة نظرها بعد أن اكتشف عمليا هول التيار الجارف لكل من يتصدى له ، ومع ذلك فإن شيئا غامضا لم يعرف كنهه ، جعله يتردد فى اتخاذ قرار حاسم . لم تسترح نجلاء لهذا التردد الذى لم يكن من طبيعته ، لكنها بفكرها المتفتح وقلبها الكبير لم تضغط عليه ، فكفاه الضغوط الهائلة التى رزح تحتها طوال الشهر الماضى .

فوجىء منسى بقرار اتهام موجه إليه يدعى أنه حاول تحريض بعض

عمال المطبعة وتجنيدهم لتخريب المطبعة الإلكترونية الحديثة التى استوردتها المؤسسة ، ومنح اثنين منهم مبالغ ضخمة كمكافأة لهم ولشراء بعض الأحماض والمتفجرات لتنفيذ المؤامرة الإجرامية . كما استند الاتهام إلى اعتراف منسى الذى صرح به فى أول اجتماع للمحررين والعاملين برياسة عصام قدرى ، والذى أوضح بطريقة لا تقبل الشك عداءه وهجومه على فكرة استيراد آلة طباعةحديثة تساير متغيرات العصر . بل إن حقده دفعه إلى وضع مؤامرته قبل وصول الآلة وتركيبها ، ولولا وطنية العاملين اللذين أبلغا عنه فور اتصاله بهما ومنحهما هذه المبالغ الطائلة ، لكانت الدار الآن كلها مهددة بالدمار والخراب .

أحيل منسى للتحقيق معه وسط دوامات الذهول التى لم يستطع الخروج منها ، فلم يعرف ماذا يقول أو ماذا يعمل ؟ ولم يكن ذهول حسام أقل منه ، لدرجة أنه نسى موضوع وضعه تحت رحمة برعى ، وظلت صورة منسى تطارده ليل نهار ، مما جعل زوجته تلوذ بالصمت . وكان حسام قد بدأ ينحى باللائمة على عبد الحليم رضا الذى كانت نصائحه بالنسبة لهم درراً ذهبية ، فأصبحت مصائب تنهال على رءوسهم تباعا . وكان على وشك أن يزوره لمواجهته بهذ الحقائق الرهيبة ، لولا أنه كتب فى عموده اليومى مقالة نارية هاجم فيها ذيول عصام قدرى الذين سارعوا إلى تشويه صورة منسى ومحاولة إثبات التهمة عليه قبل أن يصدر القضاء كلمته ، وذلك من خلال نشر التحقيقات الصحفية التى تتضمن أخبارا ملفقة ، وأسراراً كاذبة عن تاريخ حياة منسى التى قضاها بين المطابع إلى أن أكرمه عصام قدرى بترقيته إلى وظيفة مستشار خاص له لشئون المطابع . لكن لأن الحقد والغدر يجريان فى عروقه مجرى الدماء فقد أقدم على فعلته الشنعاء ، لولا أن عين الله الساهرة كانت له بالمرصاد .

كتب عبد الحليم رضا فى مقالته أن القضاء هو أعلى سلطة فى

البلاد ، وليس من حق أى إنسان فى البلاد ، مهما كانت مكانته وسلطته ، أن يصدر حكما على إنسان آخر ، أو حتى يوحى ويلمح ببعض الملابسات التى يمكن أن تقوم بدور الحيثيات المشكلة للحكم الذى سيصدره القضاء الذى لا بد أن تكون كلمته هى الأولى والأخيرة بشأن هذا المتهم الذى يعتبر بريئا إلى أن تثبت إدانته .

قرأ عصام المقالة قبل نشرها . فكر فى منعها على أساس أنها تتعرض لأى إنسان فى البلاد ، مهما كانت مكانته وسلطته ، وكى يفرض وصايته على عبد الحليم رضا تحت ستار أنه يرغب فى حمايته من مخاطر هو فى غنى عنها ، لكن سرعان ما تدارك عصام الأمر وأيقن أن الفرصة قد حانت أخيرا لتوجيه الضربة القاضية إلى عبد الحليم رضا . وبالفعل نشرت المقالة كما هى ، وفى اليوم نفسه صدر قرار طرب له قلب عصام طربا جعله يرقص بين ضلوعه . فقد تأكد تماما أن خططه المحكمة لا يمكن أن تخيب أبدا ، بل إن نتائجها تترى كما يتوقعها بالضبط . فقد نص القرار غير المكتوب الذى تلقاه عصام بالتليفون بعد أن قام هو نفسه بمكالمة قصيرة ، بعد أن أغلق على نفسه أبواب مكتبه بإحكام ، نص على منع عبد الحليم رضا تماما من الكتابة مع شطب اسمه المنشور تحت اسم الجريدة على أنه مؤسسها !!

كانت نورا تتابع طوفان الأحداث وإيقاعها اللاهث المرعب بقلب يكاد يتوقف هلعا على ولديها . ولولا أنها كانت أقدم صحفية فى قسم المرأة ، لكانت سهيلة رئيسها الآن . وحمدت الله على أن الحرب ضدها توقفت عند حدود منع الحوافز والمكافآت والبدلات والسفريات . فهذه كلها أمور تقدر عليها طالما أن شيئا لم يمس مستقبلها أو ولديها . ولذلك قنعت بأن تقبع فى جحرها .

عادت نجلاء إلى الالحاح بشدة على زوجها للسفر والابتعاد عن

المستنقع الذى سيبتلعهم واحدا بعد الآخر ، لكنه استنكف أن يهرب بجلده فى حين يواجه منسى الحكم بالأشغال الشاقة بناء على تهمة قذرة لفقت له ، وفى حين يلزم عبد الحليم رضا عقر داره ، ممنوعا من أن يزوره أحد أو يزور أحداً . لكن مع دموع الإلحاح المتدفقة فى عينى نجلاء ، ومع قناعته التدريجية أن استمرار وجوده فى المؤسسة لا يعنى سوى الموت البطىء له ، خاصة بعد أن منع برعى مقالاته تماما ، قرر الشروع فى السفر من أجل الجنين القابع فى بطن زوجته ، والذى يشعره بقيمة الحياة والإصرار على استمرارها برغم متاهة الشتات والضياع التى يحياها .

ظن حسام أن عصاما سيسعد بالتخلص منه بسفره إلى خارج مصر ، فتقدم إليه شخصيا بطلب السفر للعمل فى إحدى المجلات العربية التى طلبته بالفعل . لكن ذهول حسام بلغ حد الصدمة التى أوشكت أن تفقده اتزانه تماما . فقد استقبله عصام هاشًّا باشًّا ، وقرأ طلبه بمنتهى الاهتمام والإمعان ، ثم أسبل عينيه ، وداعب حبات سبحته ، وملس على شعره المصبوغ ، وقال بمنتهى الفخر والاعتزاز :

ــ إننى لا أفرط بهذه السهولة والبساطة فى الصحفيين المثقفين النابهين أمثالك !! فأنت مكسب كبير للدار !!

قاوم حسام رغبة عارمة دفعته إلى قلب المكتب الذى يجلس إليه رأسا على عقب فوق شعره المصبوغ . التصق بمقعده تماما :

ــ إذا كانت هذه فكرة سيادتك عنى حقا .. فلماذا يمنع برعى مقالاتى وكل كتابات نجلاء بلا استثناء ؟!

ــ لا بد أن له وجهة نظر فى هذا !! فهو لا يحمل لك أية ضغينة بدليل أنه رضى أن يعمل تحت إشرافك خمس سنوات برغم أنه كان المشرف على الصفحة قبلك بحكم سنه وأقدميته وخبرته !!

ــ معنى هذا أن مقالاتى ستظل ممنوعة .. لأن التفاهم بينى وبينه

مستحيل ؟!

حرك عصام سبابته نصف دائرة عدة مرات بتدليل رافض :

ــ لا أحب هذه الروح !! أين روح الأسرة التى أنادى بها دائما ؟! أين الحب والتعاون والوفاء ؟! لقد أعلنت الحرب على الحقد ولن ألقى السلاح إلا بعد أن أرديه قتيلا !!

تذكر حسام مسدس أبيه القابع فى درج مكتبه برصاصاته الثمانى منذ عام ١٩٥٦ . فقد عاش مع زوجته نجلاء فى شقة أبيه التى يذكره كل ركن فيها به . فلم يكن هناك حديث بينه وبين أمه فى شبابه المبكر سوى عن بطولات أبيه فى الجيش ثم استشهاده برصاص الإنجليز دون أن يطلق رصاصة واحدة على أحدهم . وعلى الرغم من أن أمه رحلت عن العالم منذ عامين ، فإن كلماتها عن أبيه لا تزال تتردد مع أصداء الصمت بين جدران الشقة .كانت الرصاصات التى أردته شهيدا قد استقرت كلها فى ظهره . تماما كما استقرت رصاصات عصام الغادرة فى ظهر منسى وعبد الحليم رضا .

ــ فيم شردت ؟! ألم يعجبك كلامى عن الحرب التى أشنها ضد الحقد ؟!

تدارك حسام نفسه :

ــ أبداً .. كنت أقول لنفسى إن النشر للكاتب مثل الهواء للرئة !!

ــ طالما أنك تحصل على مرتبك كاملا فلا مبرر للشكوى !

تذكر حسام أن التفاهم مستحيل بينهما :

ــ هل أفهم من كلام سيادتك أن سفرى إلى الخارج غير ممكن ؟!

ــ على الأقل فى الوقت الحالى .. فلا أحب أن أخفى عليك أن الموضوع خرج من يدى .. ولم تعد لى أية سيطرة عليه !!

لم يقاوم حسام موجة جديدة من الذهول :

ــ لا أفهم !!

أطلق عصام نفسا كثيفا من الدخان المعطر ، مع شعور عميق بالرضا والارتياح . بدا كأنه تذكر شيئا . فتح الدرج الأيمن فى مكتبه وأخرج عوداً من البخور الهندى أوقفه وسط المشجب الخشبى الدائرى الصغير الذى يعلق عليه مجموعته من الغليون . أشعل العود واستنشقه باستمتاع مسبلا عينيه . ترك الذهول مكانه للحنق داخل حسام :

ــ لم أفهم شيئا عن الموضوع الذى خرج من يدك ؟!

فتح عصام عينيه نصف فتحة وفمه كذلك :

ــ لا أخفى عليك أن حركة تطهير الصحافة قد أوشكت على الصدور ، ولذلك فإن تنقلات الصحفيين وسفرياتهم متوقفة تماما انتظارا لما تسفر عنه هذه الحركة !! فقد آن الأوان للملحدين والحاقدين والمنحرفين والشواذ أن يتركوا ميدان الصحافة بلا رجعة حتى يصبح نقيًّا طاهرًا نظيفًا بعد أن لوَّثوه بما فيه الكفاية !!

تساءل حسام دون تفكير :

ــ وهل يمكن أن أعتبر أنا واحدا من هؤلاء ؟!

ــ تسألنى كما لو كنت أنا الذى سأقوم بكتابة القوائم .. وعلى الرغم من أنك بهذا السؤال قد جاوزت حدودك كعادتك .. لكننى بروح رب الأسرة سأتجاوز وسأصفح وسأقول لك إنك أدرى بالإجابة على هذا السؤال .. فإذا كنت واحدا من هؤلاء فلا بد أن اسمك قد تم رصده فى الكشوف .. وعموما .. لا داعى للعجلة .. إن غدًا لناظره قريب !.

تشبث حسام بصلابته النابعة من أعالى الصعيد :

ــ وهل ستلقون بهؤلاء الصحفيين فى الشارع ؟! أم ستوجدون لهم وظائف جديدة ؟!

ــ تسألنى مرة أخرى بنفس الخبث .. ومع ذلك سأصارحك بأنه على الرغم من الإفساد الذى أحدثه هؤلاء فى الصحافة .. فإن روح العائلة

حتّمت البحث لهم عن وظائف .. ولذلك سيتم توزيعهم على هيئات ومصالح البريد والمجارى والنقل العام والاستعلامات برغم أنها ليست فى حاجة إليهم .. أما الذين تورطوا فى جرائم جنائية مثل منسى فليس أمامهم سوى السجن انتظارًا لمحاكمتهم العادلة !!

لم يعد هناك ما يقال . بل إن حساما ندم على هذه المقابلة وإن كان قد استفاد منها فى الحصول على هذه المعلومات التى تؤكد أن الطوفان قادم لا محالة !!

— ٧ —

أغرق الطوفان كل البشر والأشياء ما عدا الذين تعلقوا بفلَك عصام قدرى الذى كان سعيدا بهذه الصورة التى رسمها له برعى :

— إنك تكرر قصة سيدنا نوح .. ولكن بأسلوب عصرى حديث ..

نظر عصام إلى الأمواج المترامية على شاطىء العجمى بارتياح شديد وهو يداعب حبّات سبحته ويتابع الفاتنات المتهاديات أمامه فى لباس البحر الذى يكشف أكثر مما يستر . لم يكن أحد يعرف اتجاه عينيه خلف نظارته السوداء الكبيرة ، لكن سهيلة الجالسة بجواره فوق الرمال كانت خبيرة بكل ما يدور داخله ، ولعل هذا هو السبب الذى دفعه إلى الارتباط الوثيق بها . كانت ترتدى قبعة على الطراز الأسبانى غطّت شعرها الأحمر المصبوغ ، وتضع نظارة خضراء كشفت عن حركة عينيها . أما صدرها فقد برز فى جرأة تحت لباس البحر الذى اختفى أسفله تحت بنطلونها الأبيض الخفيف . جلست على الرمال ملتصقة بإحدى زوايا مقعد عصام ، فى حين التصق برعى بالزاوية المقابلة وهو ينظر إلى عصام بإعجاب شديد محاولا إعادة مفرق شعره الذى يقسم رأسه إلى نصفين ، إلى هندامه الذى أضاعته ريح البحر المتجددة .

كان عصام قد اختلس يوما مع سهيلة وبرعى لقضائه فى الشاليه الذى يملكه فى العجمى بعد أيام حافلة بالاجتماعات واللقاءات والقرارات المصيرية ، أيام انتهت بصدور قرارات تطهير الصحافة والتحفظ على المشكوك فى نواياهم . كانت القاهرة تغلى وتفور ، سواء مع حر أغسطس ورطوبته الخانقة أو مع الدوامات المتلاطمة التى تفنَّن عصام قدرى وأمثاله فى إثارتها بهدف التخلص نهائيا من خصومهم . وبعد أن وقع ما وقع أراد عصام أن يضرب عصفورين بحجر من خلال اختفائه ليوم أو يومين فى العجمى : العصفور الأول تمثَّل فى الهرب من جو القاهرة الخانق والمختنق بالصراعات ، والثانى كى يبدو بريئا مما وقع ، براءة الذئب من دم ابن يعقوب .

تابع برعى سيده وهو يفشل مرارا فى إشعال غليونه ، وعندما يئس واضعا إياه فى المنفضة أمامه قال :

ـــ كانت فكرة سعادتك من العبقرية بحيث لم تطبَّق على الصحافة فحسب بل امتدت لتشمل كل أجهزة الإعلام من راديو وتليفزيون .. بل إن أساتذة الجامعة المشكوك فى نواياهم تم إبعادهم هم أيضا عن الجامعة !!

وضع عصام يده على قبعته الأنيقة حتى لا تطير مع الهواء من فوق رأسه . نظر إلى المظلة المهتزة فى عنف حتى خيِّل إليه أن جذرها على وشك الاقتلاع من الرمل ، لكنه أسبل عينيه :

ـــ عندما أفكر فأنا لا أفكر لمؤسستنا أو دارنا فقط ، بل أضع مصر فى اعتبارى دائما بصفتها الدار الكبرى لنا جميعا !!

ابتسمت سهيلة فى دلال وإغراء وهى تمد ساقها اليمنى على الرمال :

ـــ لم أجد رجلا يعشق مصر مثلك .. لدرجة أننى أشعر أنها ضرَّتى التى لا يمكن أن أتخلَّص منها .. لكن الشىء الوحيد الذى يعزِّينى أنك لم تتزوجها مثلى تماما !!

فور صمتها قال برعى :

ــ كانوا يظنون أنفسهم أوصياء على مصر بمبادئهم المستوردة ونواياهم المسمومة .. لكنهم لم يعلموا أن من يمس مصر بسوء .. لا بد أن يقتلعه الإعصار من جذوره !!

تابع عصام موجة عالية ارتطمت بالشاطىء ولم تنحسر إلا بعد أن كادت تغرق قدميه :

ــ كان قلبى ينزف دما .. وأنا أرى إخوتى وأبنائى وقد شتَّت شملهم القرارات الأخيرة .. لكن ما باليد حيلة .. إن مصر فوق كل اعتبار !

استرخت سهيلة على عمود المظلة المدفون فى الرمل :

ــ لم أر قلبا مثل قلبك فى حنانه وحبه المتدفق .. بدليل أن نورا ظلت كما هى فى رياسة قسم المرأة برغم الإعصار الذى أطاح بالجميع ! وظللت أنا فى مكانى تحت رحمتها !!

وضع عصام يده على قبعتها كأنه يباركها مبتسما :

ــ لا تتعجَّلى الأمور يا سهيلة .. أنت تعلمين جيدا أنك لست تحت رحمة أحد .. أما مرادك فلن يتحقق إلا فى اللحظة التى أحدِّدها أنا ! فأنا لا أتَّخذ قراراتى اعتباطا .. فهى لا تأتينى إلا بعد تأمل عميق يعقبه إلهام أعمق .. ولذلك قرَّرت ابتداء من هذا الأسبوع أن أعتكف يومين من كل أسبوع أقضيهما فى التأمل والاستلهام حتى يرتاح ضميرى تماما لكل قرار أتَّخذه !!.

اجتاحت برعى موجة من الغبطة :

ــ هذا أمر مفروغ منه !!

ثم انفجر ضاحكا فسأله عصام :

ــ ماذا أضحكك بهذا الشكل ؟!

ــ تصورت حساما وهو يدق على أبواب المنازل والفيلات صائحا

بأعلى صوته : « بوستة » .. « بوستة » !!

أطلقت سهيلة ضحكة صادحة حملتها طيَّات الريح فوق الأمواج ، فى حين شاركهما عصام بضحكة أرستقراطية مترفعة أعقبها بقوله :

ـــ للأسف الشديد .. هناك من البشر من لا يتعلم إلا بعد أن يذوق الذل !! كان يظن فى نفسه المثقَّف والمفكِّر والأمين والمخلص والشريف والنظيف والطاهر والنقى والملهم الوحيد فى الدار .. ثم جاءت اللحظات التى تعلَّم فيها أنه لا شىء ..

أضاف برعى شاعرا بالسعادة تغمره مثل الأمواج فوق الشاطىء :

ـــ فعلا .. لا يصح إلا الصحيح فى النهاية !!

عادت سهيلة تداعب عصاما وهى تكاد تلتصق بساقه العارية :

ـــ لكنك كنت رحيما مع زوجته ولم ترسلها هى الأخرى إلى هيئة البريد ؟! إنك فى غاية اللطف مع الجنس اللطيف .. وفى غاية الخشونة مع الجنس الخشن !!

ـــ لكننى أتحوَّل إلى وحش كاسر مع الأنثى التى تدَّعى الشرف !!

ـــ إننى لم أر فيك هذا الوحش الكاسر أبدًا ؟!

ـــ ذلك لأنك صادقة جدا مع نفسك !! ولعل هذا هو السبب فى ارتباطى بك ؟!

تدخَّل برعى فى الحوار سعيدا بهما :

ـــ أدام الله المعروف والمحبَّة والحب !! فنحن نعيش أيامًا كالأحلام ! فقد قضينا على كل خصومنا بضربة واحدة !!.

نظر عصام عبر الأفق حيث تلتقى زرقة السماء بزرقة الماء التى تناثرت عليها السابحات الفاتنات بألوانهن الخلَّابة ، أما السابحون فلم يشكِّلوا مركز جذب لعينيه اللتين عادتا من رحلتهما لتناما على صدر سهيلة وهو يقول :

ـــ حتى عبد الحليم رضا الذى كان يظن أن سنه الكبيرة ستحميه من أى عقاب .. يقبع الآن فى السجن متحفظًا عليه فى انتظار المحاكمة حتى لا يتهجّم على أسياده مرة أخرى ! صحيح أنه أستاذى الذى تعلّمت الصحافة على يديه .. لكن تظل مصر فوق كل اعتبار .. فالصداقة الشخصية لا يمكن أن تكون فوق المصلحة القومية !!

تمسَّح برعى بكلماته اللزجة :

ـــ كان لا بد أن يدخل حسام السجن مثل عبد الحليم ومنسى .. فجريمته فى تحريض المحرِّرين ضدنا لا تقلّ فى بشاعتها عن جريمتهما !!.

عاد عصام إلى النظر عبر الأفق :

ـــ لا بد أن تعرف يا برعى أن من يجلس على القمَّة يرى ما لا يراه من يقبع عند السفح .. ولذلك فأنا رحيم جدًّا مع الشباب على أمل إصلاحه .. أما من بلغ من العمر أرذله .. ولا يزال مصرًّا على فساده وإفساده .. فلا بد أن يلقى جزاءه !.

أطلقت سهيلة ضحكة ماجنة :

ـــ الحمد لله .. فلا أزال فى عز شبابى !!

نظر عصام إليها مبتسما قرير العين :

ـــ إذا كنت تريدين أن تحلّى محل نورا فى قسم المرأة .. فعليك أن تتقرَّبى منها وتشعريها بأنك الصدر الحنون الوحيد لها .. وأنه لولا دفاعى عنها أمام المسئولين لكانت الآن فى هيئة الكهرباء أو المجارى !!

نضح الخبث على نبرات سهيلة المتسائلة :

ـــ إن هذا من شأنه تقوية الصلة بينكما .. وربما وجدت نفسى فى خبر كان ؟!

ـــ أنت واثقة تماما أننى لا يمكن أن أستغنى عنك !

ـــ وماذا عن نجلاء ؟!

ـــ إننى لا أعبر الجسور قبل أن أصل إليها .. فهى ليست فى خطّتى الآن .. كما أننى أحيانا أترك الزمن يساعدنى على ابتكار خطط لم تكن تخطر لى على بال !!

لم يشأ برعى أن يلزم الصمت أكثر من هذا :

ـــ خاصة وأن الزمن يسير لصالحنا تماما !..

وضع عصام ساقا على ساق مستمتعا بلمسات الهواء المشبع باليود ،وشاعرا بكل آيات الحكمة والفلسفة تقطر من كلماته :

ـــ الزمن يا برعى سلاح محايد لا ينحاز إلا للذى يغتصبه أغتصابا ويشهره فى وجوه الآخرين أو يزرعه فى صدورهم .. إنها الحكمة التى تعلمتها على يدى أستاذى فى معهد الصحافة بلندن ولا زلت أتذكرها على الرغم من مرور ثلاثين عاما عليها !.

عادت سهيلة إلى ضحكتها الماجنة :

ـــ كلك حِكَم يا عصام بك !!

فجأة رفع العلم الأسود على الشاطىء ، ودوّت صفارات الغطاسين منادين على كل من فى البحر للعودة إلى البر . فقد تحوّلت الأمواج إلى جبال صاخبة متلاطمة مع اشتداد الرياح التى كادت تطير بقبعة عصام ، وتقتلع مظلته . تصارع السابحون والسابحات فى طريق العودة حتى خلا البحر تماما منهم . لكن الغطاسين لمحوا شابًّا لا يزال يصارع الأمواج بالقرب من البراميل ، وبدا من ضربات ذراعيه للأمواج أن قوّته قد وهنت ، وأصبح عاجزًا عن التقدم نحو البر . قفز غطّاس فى أحد القوارب الصغيرة ومعه حبل مربوط بطوق نجاة ، وأعقبه غطاس آخر فى قارب من نفس النوع . جدَّف كلاهما بسرعة مستميتة تجاه الشاب الذى لا يزال يصارع الأمواج ، فى حين تجمهر المصطافون على الشاطىء بقلوب

واجفة وعيون زائغة يتمنُّون السلامة للشاب .

لم يتحرَّك عصام من مكانه مستمتعا بجلسة سهيلة وبرعى عند قدميه ، ولم يضايقه سوى الجمهور الذى حجب عنه المشهد المثير الذى أراد أن يتابعه لحظة بلحظة لعلَّه يوحى إليه بفكرة لمقالة جديدة ، خاصة وأنه يكتب الآن مقالة افتتاحية يومية فى الصفحة الأولى من الجريدة .

سرت نغمة ارتياح بين الواقفين ، وحمدوا الله عندما ألقى الغطاس الأول بطوق النجاة للشاب الذى أمسك به فى وهن بالغ ، لكن سرعان ما شدَّه الغطاس بمساعدة زميله الذى لحق به ، ووضعه الاثنان فى القارب كما لو كان جثة هامدة من شدة الإعياء أو الإغماء . عاد القاربان فى تجديف عنيف ضد التيار حتى بلغا الشاطىء وسط تهليل الواقفين وتصفيقهم . أخرج الرجلان الشاب من القارب ومدَّدا جسده فوق الرمال ، ثم قام أحدهما بإجراء تنفس صناعى له ، فى حين أسرع الآخر لاستدعاء الطبيب المقيم فى مركز الإسعاف الملحق بالشاطىء .

نهض عصام قدرى واقفا :

ــ هيا بنا إلى الشاليه .. لقد فتح هواء البحر شهيتى للطعام !

فى الحال أسرع برعى مع سهيلة فى جمع المقاعد والمظلة ، فى حين اتجه عصام صوب الشاليه المطل على البحر ، وعندما لحقا به قال :

ــ هذا هو عقاب من يشذ عن القطيع !..

ظلَّ حسام عاجزا عن استيعاب الصدمة التى أوشكت أن تصيبه بالجنون لولا تفكيره الدائم فى السجن الذى ابتلع أستاذه الشيخ الوقور عبد الحليم رضا وصديقه الثورى الصامد منسى . لم يرحموا شيخوخة عبد الحليم رضا ، وها هو يدخل السجن مرة ثانية فى حياته العريضة الحافلة ، لكن هل يستطيع هذه المرة الخروج منه صامدا منتصرًا بعد أن تكالبت عليه أمراض الشيخوخة ، وأصبحت الظلمة حالكة السواد ؟ أما منسى فتمنى حسام أن تعود شارون إلى مصر حتى تراه بنفسها وقد تحوَّل إلى بطل من أبطال المآسى الإغريقية وهو يكفِّر عن غلطة أو هفوة ارتكبها منذ ثلاثين عاما ..

لم تكن نجلاء أقل حزنا وقلقا وإحباطا من حسام الذى حاول الظهور أمامها بمظهر الصابر الصامد حتى لا تؤثر حالتها النفسية على حملها الذى أتم شهره الثانى ، لكنها كانت واعية تماما بالحريق المشتعل داخله ، فقد لمحته ذات مرَّة وهو يداعب مسدس أبيه القابع فى درج مكتبه ، لكنها تظاهرت بأنها لم تر شيئا . وعندما أغلق الدرج جلست إليه تداعبه متسائلة :

ـــ فى اعتقادى يا حسام أن الصحفى أو الكاتب فى حاجة دائمة إلى توسيع مجال خبراته وتجاربه بل ومحنه فى الحياة حتى لا تقتصر تجربته على مجال الصحافة فربما أصيب بالجمود والتحجُّر !!

تساءل حسام فى مرارة أعلنت عنها الهالات السوداء حول عينيه ، وشعره الأشعث ، وذقنه الذى لم يعرف الحلاقة منذ عدة أيام :

ـــ وهل هناك محن أفظع من التى مررت بها ؟!

ـــ كلها محصورة داخل نطاق الصحافة التى عرفنا كل مؤامراتها

وألاعيبها !

مسح حسام عرق جبينه بمنديل ثم فتح صدر البيجاما الخفيفة :

ـــ ألم تكفنا مصائب الصحافة ؟! تريدين مصائب أخرى من خارجها ؟!

فتحت نجلاء الروب الخفيف الذى ترتديه فظهر جسدها رشيقا دقيقا كما هو . حتى بطنها لم يتكوَّر بما فيه الكفاية للإعلان عن حملها ، أما شعرها فقد طال قليلا حتى أوشك أن يغطى أذنيها :

ـــ لم أقصد هذا يا حسام .. وإنما قصدى أن تجربة النقل إلى هيئة البريد ربما تقدِّم إليك من الحقائق والمعلومات والخبرات ما قد يفيدك بعد ذلك كصحفى !!

ـــ وهل لا زلت تأملين فى عودتى إلى الصحافة ؟!

ـــ أين إرادتك الحديدية ؟! إنها مجرد زوبعة فى فنجان !!

ـــ إرادتى كما هى .. لكن التيار أعتى من أية إرادة !!

ـــ لكل تيار نهاية .. كما له بداية !

ـــ أرجو !

ـــ إن تسلمك العمل فى البريد يمكن أن يشكِّل تجربة مثيرة للغاية ؟!

ـــ لا زلت عاجزا عن تقبُّل هذه الحقيقة البشعة !

ـــ إن ما يخفف من بشاعتها .. ويمنحنا الأمل فى عودة المياه إلى مجاريها أننى لا زلت فى المؤسسة على الرغم من أننى لا أكتب شيئا !!

نهض حسام وفتح خصاص نافذة الغرفة التى تطل على شارع الفجالة بمكتباته العديدة وضجيج عربات الترام والسيارات فيه . إنه الشارع الذى شهد معظم حياته فى هذه الشقة العريقة ، والذى لم يقطن فى شارع غيره ، كذلك فإن عائلة نجلاء تعيش فى الجيرة ، وقد أحبَّها منذ سنى المراهقة ، وعندما تزاملا فى كلية الإعلام أحسَّا أن مصيرهما واحد . كان

حبهما مزيجا رائعا من العقل والعاطفة ، وبمجرد تخرجهما تزوجا واستقرًا في هذه الشقة التي رحل عنها أبوه شهيدا في بور سعيد . قال :

ـــ كل ما أريده منك ألا تحملي همِّي حتى لا يؤثر على الحمل !

ـــ كيف لا أحمل همَّك والجحيم الذي يحتويك يكويني بألسنته ؟!

ـــ هل سيهدأ بالك لو تسلَّمت عملي في البريد ؟!

ـــ كل ما أريده أن تفوِّت على عصام تقديم حجَّة عملية للمسئولين كي يؤكد في ذهنهم تهمة التمرد والتحريض التي ألصقها بك !

ـــ وكيف الحال الآن في الدار ؟!

ـــ طبعا خروج عشرين صحفيا ومثلهم تقريبا من الإداريين والعمال لا بد أن يؤدي إلى حالة من السكون والترقب والتوجس !.

ـــ هل هو السكون الذي يعقب العاصفة أم ذلك الذي يسبقها ؟!

ـــ لقد مرَّت العاصفة .. وفي اعتقادي أنه لم يعد في طاقة أحد .. بعد كل ما جرى .. أن يثير ولو مجرد نسمة هواء !

ـــ وهل يعقل أن نتنفس هذه الحالة من الموات ؟! لا بد من صحوة جديدة !!

ـــ كفانا ثورية .. لم نجن منها سوى الثمار المرَّة التي نعيش عليها الآن ! ولا أريد لابني أن يذوقها !..

ـــ عندك حق .. فليذهب عصام إلى الجحيم .. لا أريد أن أجعل منه قضية عمري .. كل ما يهمني الآن هو أنت وابننا الذي أنتظره على أحرِّ من جمر .. إنه يمنح حياتي معنى برغم كل العدم الذي يحيط بنا .. ولذلك سأستلم عملي غدا في هيئة البريد .. لن أمنح عصاما فرصة جديدة كي يطعنني في الخلف مرة أخرى ، يكفي أبي الذي استشهد برصاص الإنجليز في ظهره !..

ـــ لا داعي لأن تتحداه أكثر من هذا .. فنحن في عصر لا يعرف معنى

الاختلاف فى الرأى أو المواجهة المباشرة الصريحة أو الخصومة الشريفة .. ولذلك فأنت لا تعرف من أين تأتيك الطعنات ؟! ومن يخاف على نفسه ومستقبله لا بد أن يتسلح بالحرص والتحفظ والوعى الحاد لكل ما يدور حوله .. وهو ما أفعله الآن فى مواجهة محاولات سهيلة المريبة للتقرب منى .. وإفهامى أن عصاما لم يكن له يد فى كل ما جرى !

تحولت ملامح حسام إلى تجسيد حى للدهشة . جلس فى المقعد المجاور لنجلاء :

ــ لم تخبرينى بشىء عن هذا ؟

ــ لم تكن فى حالة تسمح بأن أقص عليك شيئا !

ــ إننى نفس حسام القوى الصلب .. ومن حقى أن أعرف كل المناورات التى تدور حولك فى غيابى ..

ــ لا تعبأ بها .. فهى مناورات مكشوفة ! ونحن لا نقل دهاء عن عصام الذى انتصر علينا لأننا كنا واضحين كالشمس فى مواجهتنا له منذ أول اجتماع عقده لمجلس التحرير تحت رياسته .. أما هو فكان كالحية الملساء ذات الجلد المزخرف الجميل والناب السام القاتل !

ــ إياك أن تظنى فى نفسك القدرة على محاربة عصام بأسلحته .. فهى مرتبطة بطبيعة تفكيره وسلوكه وشخصيته .. وهى أسلحة تدرب على استخدامها أكثر من ثلاثين عاما .. فهل تظنين أن مجرد تفكيرك فى استخدام أسلحة الدهاء والخبث والخداع والانتهازية والوصولية والتسلق مثله .. سيجعلك ندا له ؟! لا تأخذى الأمور بهذه البساطة !

ربتت على يده فى حنان دافق :

ــ أنا معك فى كل هذا .. لكن كل ما قصدته أن التسلح بالدبلوماسية والتحفظ والحرص والكتمان أصبح ضرورة ملحة فى مواجهة عصام وأمثاله ..

استرخى حسام فى مقعده :

ــ لا جدال فى هذا !

نظرت نجلاء إلى المنبه الصغير فوق مكتب حسام فوجدته يقترب من الحادية عشرة :

ــ اليوم أول الأسبوع .. ولا يعقل أن تظل هكذا بالبيت بعد أن كنت مصدر حيوية لكل من حولك .. أريد أن تقود أنت العربة .. فربما أثرت القيادة وضغوطها العصبية على الجنين !!

ابتسم حسام واحدة من ابتساماته القديمة العذبة :

ــ أعرف ما يدور فى رأسك يا خبيثة !!

نهض وقبلها فى شفتيها قبلة سريعة قائلا :

ــ سأنفذ ما تأمرين به .. فأنا لا أستطيع أن أرفض لك طلبا !

نهضت أمامه واحتضنته بعنف :

ــ هيا .. احلق ذقنك وتعطر حتى تعود الأيام السعيدة مرة أخرى !! وسأنتظر على أحر من جمر لأستمع وأستمتع بتجربتك الفريدة المثيرة فى البريد اليوم !

تخلص من أحضانها مبتسما برفق وانطلق إلى الحمام . وأسرعت هى الأخرى لتعد نفسها للخروج لأول مرة معه منذ قرار النقل . وبعد ما يقرب من نصف ساعة كان الاثنان فى العربة البيضاء الصغيرة التى اخترقت شارع الفجالة ببطء شديد وسط عربات الترام والسيارات التى تتحرك شبه متلاصقة . والعجيب أن حساما استراح لهذا الضجيج الذى كان يمقته ، ربما لأنه طغى على الضجيج داخله . هبطت نجلاء لأول مرة بمفردها أمام باب المؤسسة . وعندما انطلق حسام بالعربة منعت دمعة كانت على وشك الجريان ، فلم تكن تحب الظهور بمظهر الاستكانة أو الضعف أو الاستسلام .

لم يجد حسام مكانا يوقف فيه عربته إلا فى الموقف الكبير الذى أقيم مكان دار الأوبرا بعد احتراقها . كانت الشمس تلفح السائرين فى ميدان العتبة بسياط تمزج النار بالرطوبة . مسح حسام العرق المتصبب على جبينه بمنديله ، ثم تحسس خطاب النقل فى جيبه . دلف من الباب العريق سائلا عن مكتب مدير عام الشئون المالية والإدارية فأرشدوه إلى الطابق الثانى . دق على الباب وسرعان ما سمع :

ـــ ادخل .. تفضل !

فتح الباب ودخل . كان هناك خلف المكتب الضخم العتيق رجل ذكره بعبد الحليم رضا وشعره الذى فارق رأسه ولم يتبق منه سوى إطار أبيض دقيق يحيط بجوانبه الخلفية ، لكنه كان أصغر سنا وحجما . نهض الرجل مرحبا بحسام الذى مد يده قائلا :

ـــ حسام السيد الصحفى المنقول من جريدة ـــــــــــ

قبل أن يكمل حسام جملته ، هز الرجل يد حسام فى حماس شديد ودار حول مكتبه بحيث جلس أمام المكتب فى مواجهة حسام !

ـــ وأنا أحمد عامر مدير عام الشئون المالية والإدارية .. لقد انتظرناك منذ بداية الأسبوع الماضى .. وكان السيد رئيس الهيئة يود استقبالك والترحيب بك لكنه للأسف قام بإجازته الصيفية ابتداء من اليوم .. وعموما فالسيد الوكيل سينوب عنه فى استقبالك .. هيه .. ماذا تشرب ؟! لا بد من شىء مثلج فى هذه الحرارة الخانقة ..

شعر حسام أن مصر لا تزال بخير . هذا الرجل الذى يقابله لأول مرة يرحب به بهذه الطريقة الودية محاولا إزالة أى احساس بالغربة ، على الرغم من الاختلاف البيِّن بين طريق كل منهما فى الحياة . تنبه على صوته يداعبه مرة أخرى :

ـــ ليس للخجل مكان بيننا !!

ثم ضغط على الجرس . دخل أحد السعاة فأمره بإحضار مياه غازية مثلجة للغاية ، وبمجرد اختفاء الساعى قال :

ــ لقد أخبرنى السيد رئيس الهيئة قبل قيامه بالإجازة بأنك ستكون ضيفنا المعزز المكرم .. ولذلك نرجو أن تزورنا كلما تشتاق إلينا .. فلن نثقل عليك بالجلوس إلى مكتب .. خاصة ونحن نعانى أزمة فى عدد المكاتب .. ولعلمى بأن الصحفيين لا يحبون الجلوس إلى مكاتب !

ابتسم حسام سعيدا من أعماق قلبه :

ــ تكفى مقابلة سيادتك لى ! فكلامك بلسم لجرح آلمنى كثيراً !!

ــ ألا تعلم يا أستاذ حسام أننى من قرائك المعجبين بكل كلمة كتبتها فى صفحة الفكر ؟!

اجتاحت حسام رغبة عارمة فى احتضان الرجل وتقبيله :

ــ ربما لا تعرف سيادتك أن زملائى فى الجريدة نفسها لم يهتموا بقراءة مقالاتى !! فقد أصيب الصحفيون بآفة قاتلة .. فهم يكتبون ولا يقرءون !!

ــ فى اعتقادى أن صحفيين كثيرين يكتبون وكأن القراء جماعة من السذج والبله الذين يصدقون أى كلام يكتب على عواهنه .. فى حين أنهم اكتسبوا مناعة غريبة ضد تصديق معظم ما يكتب حتى إذا كان بعضه صادقا !

ذهل حسام لهذا الوعى العميق الشامل الذى يتمتع به مدير عام الشئون المالية والإدارية بهيئة البريد ، بعد أن كان يعتبره مجرد موظف بدرجة كبيرة . شعر بالفخر وهو يجلس مع هذا المفكر المجهول الذى قلَّ أن يجد نظيره فى صحافة هذه الأيام . رأى الرجل علامات الارتياح والإعجاب على وجهه ، وأوشك أن ينطلق فى حديثه لولا دخول الساعى حاملا زجاجة المياه الغازية التى فتحها وصب منها فى كوب أمام

حسام ثم خرج . تناول الكوب ورشف رشفة قائلا :

ـــ كنت أتمنى يا عامر بك أن يكون لى رئيس تحرير مثل سيادتك !

ـــ كنت أقصد بكلامى هذا رئيس تحريرك عصام قدرى الذى يرفض الناس تصديق كلمة واحدة مما يكتبه كما يتمتع بقدر هائل من كراهيتهم !!

ـــ إن الشيء الوحيد الذى نجح فيه عصام قدرى هو بث الوقيعة والفرقة بين الصحفيين حتى انشغلوا بصراعاتهم فيما بينهم ، عن الاهتمام بقضايا الشعب التى هى الشغل الشاغل لأية صحافة وطنية حقيقية !

ـــ وبالطبع فإن الذين تصدوا له مثلك كان مصيرهم إما التحفظ عليهم فى السجون أو الإبعاد إلى مصالح وهيئات لا تمت إلى وظائفهم بصلة !

رشف حسام الكوب حتى آخرها :

ـــ لا تعرف يا عامر بك كم أنا سعيد بسيادتك .. لعلها الحسنة الوحيدة لعصام قدرى الذى دفعنى إلى معرفتك ؟!

ربت عامر على ركبة حسام مبتسما :

ـــ كنت فى نظرى كاتبا جادا ومفكرا عميقا .. والآن أصبحت بطلا وطنيا مضطهدا من أجل شرف الكلمة !

انداحت جبال الهم وتلال الغم الجاثمة على قلب حسام :

ـــ سيادتك تمنحنى أكثر مما أستحق !

ـــ أنت فى نظرنا هكذا !

ـــ أنا فداء مصر كلها !

لاحظ عامر ترقرق دمعة عابرة فى عينى حسام فغير مسار الحوار :

ـــ إن مصر مليئة بالوطنيين .. فمن يصدق مثلا أن مديرا للشئون المالية والإدارية مثلى تطوع فى عام ١٩٥١ عندما كان طالبا فى كلية التجارة فى كتائب الفدائيين التى سافرت إلى القناة وأطارت النوم من عيون

الإنجليز .. وقد نجوت بأعجوبة فى هجوم على أحد معسكرات الجيش البريطانى فى فايد فى الوقت الذى استشهد فيه أحد زملائى الذى لا زلت أذكر وجهه وملامحه الحبيبة كأننى رأيته بالأمس !

كم من أبطال يقبعون فى المصالح الحكومية والهيئات العامة ، يعيشون فى الأزقة والحوارى ، يسيرون فى الطرقات والشوارع دون أن يدرى بهم أحد !! فلم يترك المدعون ثغرة كى ينفذ منها الأصلاء . قال حسام :

ـــ كان أبى ضابطا فى الجيش برتبة يوزباشى عندما استشهد غدرا برصاص الإنجليز فى بور سعيد فى أثناء العدوان الثلاثى على مصر !!

ضحك عامر محاولا التخفيف من الجو المأسوى للحديث :

ـــ إذاً .. فالبطولة ليست شيئا دخيلا على أسرتكم ؟!

لم يشاركه حسام ضحكه :

ـــ كان مشرفا على تدريب وعمليات كتيبة الفدائيين التى استشهد فيها جواد حسنى !

ـــ جواد حسنى هذا مثلا .. كانت أمه إنجليزية .. ومع ذلك كان حب مصر يجرى فى عروقه مجرى الدماء .. فاستشهد من أجلها على أيدى الغزاة القادمين من بلد أمه !!

لا يعرف حسام لماذا تذكر شارون زوجة عصام قدرى التى خانته مع منسى وأطارت النوم من عينيه ؟! قال فيما يشبه الشرود الحالم :

ـــ كانت أياما كالحلم !! أيام التف فيها المصريون حول أمهم .. يقدمون أرواحهم فداها .. لم تكن المناصب أو المراكز أو الثروات من أهدافهم ! فقد وضعوا أمام أعينهم هدفا من اثنين : النصر أو الشهادة !

انتقلت عدوى الشرود الحالم إلى عامر :

ـــ كثيرا ما أسأل نفسى فى الأيام الأخيرة سؤالا يقلق مضجعى ولا أجد له إجابة شافية : ماذا جرى لنا ؟! أين روح مصر التى ألهمت

أبطالا مثل عمر مكرم وأحمد عرابى ومصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول وجمال عبد الناصر ؟!

ابتسم حسام ابتسامة تعجب لها عامر :

ــ لا تؤاخذنى يا عامر بك .. فلم أكن أظن أن الموظفين والإداريين الكبار يحملون هموم الوطن على أكتافهم بهذا الشكل ؟!

ضحك عامر ضحكته العذبة :

ــ كلنا فى الهم شرق !

أعاد حسام الحوار إلى مجراه :

ــ إن روح مصر قد تضعف أو تخفت أو تذبل .. لكنها لا يمكن أن تموت !! فقد كان المصريون القدماء أول من توصل إلى فكرة البعث !

ــ إيمانى بهذا لا يقل عنك ! لكن كل ما أرجوه ألا تطول فترة الذبول حتى لا تتفاقم الآثار الناتجة عنها !

عادت إلى وجه حسام ابتسامته :

ــ لولا علمى بمشاغل سيادتك .. لأتيت يوميا لزيارتك .. إن الحديث معك مأدبة شهية لا يمكن أن أشبع منها !

ــ مرحبا بك فى أى وقت ! كما يشرفنى أن تزورنى فى البيت !

نظر حسام إلى ساعته :

ــ لن أثقل على سيادتك أكثر من هذا .. فأنا أعرف المشاغل والمشاكل الإدارية .. فقد لاحظت ضغط سيادتك على زر المصباح الأحمر بمجرد دخولى .. ولا بد أن هناك من هم فى حاجة إلى استشارة أو اعتماد من سيادتك !

ضحك عامر ناظراً بدوره إلى الساعة المعلقة على الحائط أمامه :

ــ يا لها من دقة ملاحظة صحفية !

ثم نهض قائلا :

ـــ هيا بنا إلى مكتب السيد الوكيل .. فقد طلب أن يراك .. ولا بد أنه انتهى من الاجتماع الآن !! فستوقع عنده باستلام العمل بتاريخ نقلك إلى هنا !

انطلق حسام مع عامر فى الممر العريض العريق وقد امتلأت رئتاه بهواء نقى متدفق جعله يشعر بما يشبه عودة الروح !

ــ ٩ ــ

حمدت نورا الله على أن الطوفان توقف عند هذا الحد . بل إنها تفادت الظهور كثيرا مع نجلاء حتى لا تؤكد ارتباطها بالمعسكر المغضوب عليه . وكانت فى بادىء الأمر تقابل محاولات سهيلة للتقرب منها بحذر شديد ، وخاصة عندما كانت تكرر على مسامعها أن عصام بك لا يكن لها أية ضغينة ، والدليل على ذلك أن أحدا لم يمسها بسوء ، وظلت فى مكانها وسط الطوفان الذى جرف الجميع . ويوما وراء يوم بدأت الحواجز تزول بين نورا وسهيلة لدرجة أنها اشتكت إليها حرمانها من الحوافز والمكافآت دون سبب لا تعرفه . ثم فوجئت نورا بعصام بك يستدعيها إلى مكتبه ، ويستقبلها بمنتهى اللطف والبشاشة ، ويعتذر لها عن نسيانه رفع هذا الظلم عنها لانشغاله فى الأحداث الأخيرة . فهو لا يحتمل وقوع الظلم على أحبائه . وودعها حتى باب مكتبه المعبأ بالبخور ممسكا يدها بحنان غريب متصاعد دون أن تصده . لكنها تركته برفق مبتسمة سعيدة فى انتظار الخطوة العملية التى وعد بها .

وبالفعل كان صادقا فى وعده . فقد وجدت اسمها فى كشف سبتمبر للحوافز والمكافآت لدرجة أنها خافت من إحساسها العارم بالسعادة حتى لا تحسد نفسها ، خاصة وأنها كانت فى حاجة إلى المبلغ لتسديد الاشتراك السنوى للنادى الذى يقضى فيه ولداها العطلة الصيفية ، وهو

اشتراك ترتفع قيمته عاما بعد عام . وعندما قابلت سهيلة فى ذلك اليوم لم تملك سوى أن تحتضنها وتقبلها شاكرة راجية من الله أن يمكنها من رد جميلها ، فأكدت لها سهيلة أن سفرياتها إلى الخارج ستعود إليها مرة أخرى إذا أصبحت الابنة المطيعة لعصام بك ، أو بمعنى أصح طوع بنانه . فهو يغدق خيراته وأفضاله على أحبائه دون حساب .

كانت سهيلة تجلس مع نورا فى غرفة مكتبها عندما دق جرس التليفون. رفعت السماعة وهى لا تزال تبتسم لسهيلة :

ــ ألو .. نعم .. ماذا ؟!..... ماذا تقول ؟! ماذا حدث لجمال ؟! عينه ؟! ماذا جرى لعينه ؟! إنها مصيبة !! لا أكاد أصدق هذا الكابوس يا ربى !!

ارتعشت السماعة فى يد نورا التى انهارت تماما فى مقعدها ، حتى وقعت من يدها فوق المكتب وسهيلة ترقبها فى ذهول :

ــ ماذا حدث يا نورا ؟! ماذا جرى ؟!

لم ترد نورا التى بدت كما لو كانت قد فقدت وعيها ، فأمسكت سهيلة بالسماعة :

ــ ألو .. أفندم ؟! ماذا حدث ؟!..... نعم !..... نعم ؟..... نعم ! وماذا تم ؟!........ سنأتى حالا لنراه !! وهو كذلك !! شكرا !!

وضعت سهيلة السماعة فوجدت نورا ضائعة فى نشيج صامت . أمسكت بيدها بحزم واضح :

ــ هيا بنا .. ليس لدينا وقت لنضيعه فى البكاء أو الثرثرة .. سآخذك فى عربتى .. فأنت لست فى حالة تسمح لك بالقيادة .. هيا !!

جذبتها سهيلة من يدها فسارت وراءها كطفل ممسك بيد أمه، مما أدهش من رآها فى الممر أو المصعد أو عند المدخل. لكن أحدا لم يفتح فمه بالتساؤل عما حدث . ركبت سهيلة عربتها وإلى جوارها نورا التى أنامها

الكابوس تنويما مغناطيسيا . سألتها دون تفكير :

ـــ وأين هو الآن ؟!

ـــ إنه بصحبة أخيه في معهد العيون بالجيزة .. ومعهما مشرفان من النادى ! سألتها بنفس الأسلوب الآلى :

ـــ ماذا حدث بالضبط ؟!

أجابت سهيلة وهى منطلقة بالعربة برغم زحام المرور عبر كورنيش النيل المؤدى إلى الجيزة :

ـــ كان جمال يلعب مع بعض الأولاد فى النادى .. ثم حدث شجار فيما بينهم .. وفجأة أصاب حجر صغير عينه اليمنى .. فنزفت دما .. وعلى سبيل التصرف السريع نقله مشرفان من النادى إلى معهد العيون بالجيزة .. للإسعاف السريع وعمل اللازم !

رزحت نورا تحت كابوسها الحى المفاجىء :

ـــ هل يمكن أن تكون عينه قد فقدت نور البصر ؟!

ـــ لا داعى لهذا التشاؤم ! فالعين عليها حارس كما يقولون !

نظرت نورا إلى السماء عبر زجاج السيارة فى تضرع ملح :

ـــ يارب .. كن معه .. وحافظ عليه !! فلم يتبق لى فى الدنيا سواهما .. إنهما نور عينى بعد رحيل أبيهما !

ران الصمت والعربة منطلقة بحذاء النيل ، وسرعان ما كانت تقف أمام مدخل المعهد . هرولت نورا إلى المدخل تسأل فى جنون عن ابنها ، فعرفت أنه فى غرفة الكشف . دخلت وفى أعقابها سهيلة . أسرع إليها ابنها الأكبر شريف :

ـــ الحمد لله يا ماما .. فقد وقف النزيف .. والموضوع بسيط بإذن الله .

تركته واقتربت من الطبيب الذى أجلس ابنها أمام جهاز معقد لفحص قاع العين ، والذى بدت عليه المهابة والوقار :

ــ خيراً .. يا دكتور !!

قال دون أن ينظر إليها :

ــ خيراً .. إن شاء الله ..

انهمك فى عملية الكشف مرة أخرى . وبعد لحظات مضت كسنوات ، أبعد وجه الصبى الذى ورث كثيرا من ملامح أمه الجميلة ، عن العدسات المضيئة داخل الجهاز ، ثم وضع على عينه قطعة من القطن المعقم ربطها بضمادة حول رأسه . كانت نورا تتابع كل خطوة بقلب يكاد يتوقف عن النبض . سار الطبيب نحو الباب فهرعت فى أعقابه :

ــ خيراً .. يا دكتور !!

خفض الطبيب من صوته :

ــ لا أخفى عليك يا مدام .. أن ابنك أصيب بانفصال شبكى حاد .. وفى حاجة إلى عملية بأحدث الأجهزة فى هذا المجال !!

ــ أنا على استعداد أن أضحى بعينى من أجله !

ــ الأمر لن يحتاج إلى مثل هذه التضحية .. لكننى أفضل إجراءها على يدى أستاذى الذى منحنى درجة الدكتوراة فى إسبانيا .. فهى بين يديه مضمونة مئة فى المئة .. فهو أشهر جراح عالمى فى هذا المجال .. ويمكننى أن أمنحك توصية حتى يستثنيك من دور الانتظار الذى قد يزيد على شهر !!

تذكرت نورا وسط دوامتها، حالتها المالية :

ــ ألا يمكن إجراؤها هنا فى مصر ؟!

ــ لقد قلت رأيى يا مدام !! ولك حرية الاختيار !! لكن ضعى فى اعتبارك أنه انفصال شبكى حاد وغير عادى !

ــ سأحاول تنفيذ ما أمرت به يا دكتور !

ــ يمكنك اصطحابه معك إلى المنزل .. مع التردد علينا كل يومين لمباشرته حتى إجراء العملية !!

ــ شكرا يا دكتور !!

قالتها نورا وهى تحاول التماسك أمام شريف وسهيلة . عادت إلى ابنها جمال وهى تكاد تحتويه فى أحضانها . اصطحبته إلى العربة حيث جلست سهيلة إلى عجلة القيادة وإلى جوارها شريف ، فى حين جلست نورا فى المقعد الخلفى محتضنة ابنها . انطلقت العربة فى طريق العودة ونورا تقول :

ــ لا أعرف يا سهيلة كيف أرد جميلك ؟! بدونك لم أكن أستطيع أن أفعل شيئا من هول الصدمة ؟!

ردت سهيلة دون أن تغير اتجاه نظرها :

ــ لا تقولى مثل هذا الكلام الساذج .. فالأخوة التى تربط بيننا ليست مجرد شعارات جوفاء ! إنها سلوك عملى لا بد أن يثبت وجوده فى وقت الأزمات على وجه الخصوص !

ــ لا حرمنى الله من أخوتك !

ساد الصمت لحظات ضغطت فيها نورا بذراعيها حول ابنها الذى لم يتعد السابعة بعد من عمره ، والذى لم ير أباه الذى استشهد قبل ولادته بسبعة أشهر . كانت سهيلة تتوقع أن تقول نورا شيئا محددا ، وبالفعل تساءلت فى شرود حزين :

ــ من أين لى بتكاليف هذه العملية ؟! فإذا كان فى إمكانى أن تجرى له فى مصر .. فإنه من المستحيل السفر والإقامة فى إسبانيا بالإضافة إلى أجر طبيب عالمى مثل هذا !!

أجابت سهيلة بمنتهى الثقة الممزوجة بالحنان :

ـــ إن كل من هب ودب فى الجريدة يسافر إلى الخارج على نفقتها .. بالإضافة إلى بدل السفر .. ولا أجد أولى منك بالسفر .. على أن يساهم صندوق تأمين العاملين فى مصاريف العملية !!

ـــ ليس الأمر بهذه البساطة يا سهيلة .. فأنت تعلمين أننى محرومة من السفر !!

ـــ هل صدر قرار رسمى بذلك ؟!

ـــ لم يصدر .. لكن كانت هناك سفريات عديدة لمؤتمرات وأحداث مرتبطة بالمرأة والأمومة والأطفال .. مرت كلها دون أن يسمح لى عصام بك بالسفر !

ـــ ربما كان هذا قبل قرارات النقل والتحفظ ؟! أما الآن فأعتقد أن الجو قد تغير تماما .. وأصبحت الأمور أكثر استقراراً !

نظرت إليها فى مرآة العربة فى حرص وتحفظ :

ـــ هل يمنحنى كلامك هذا أملا فى أن يغير عصام بك موقفه منى ؟

ـــ عصام بك ليس له موقف من أى أحد ! وخاصة أنت !

ـــ ولماذا أنا بصفة خاصة ؟!

ـــ جربى .. وسترين ـــ ستجدين فيه نعم الأب والأخ .. وإذا كنت سمعت عنه غير هذا .. فلا بد أن تتأكدى أن الحاقدين فى هذا الزمن أصبحوا أضعاف أضعاف الناجحين !

ـــ سأحاول غدا مقابلته فى مكتبه ؟! فأنا على استعداد لأفعل أى شىء من أجل إنقاذ عين جمال !

ـــ أفضِّل أن نذهب لمقابلته فى بيته هذا المساء .. فخير البر عاجله !

عاد الشك ينهش نورا :

ـــ إننى لم أذهب إلى بيته من قبل .. كما أن ساعات معدودة بين اليوم وغدا لن تؤثر إطلاقا !

ـــ إن غدا وبعد غد هما اليومان اللذان يعتكف فيهما للتأمل والتصوف ! أى أن ثلاثة أيام يمكن أن تضيع دون اتخاذ أى خطوة حاسمة !

ـــ وما العمل ؟!

ـــ كما قلت لك ! كما لا بد أن تعرفى أن عصام بك على النقيض من الصورة التى فى ذهنك تماما ! فليس هناك أحن من قلبه .. ولو كان ينوى بك شرًّا لأزاحك من صفحة المرأة على أحسن الفروض كى أحل محلك .. وأنا ـــ كما تعلمين ـــ أقرب الناس إليه !!

ترك الشك مكانه للاعتذار الرقيق :

ـــ لا تؤاخذينى يا سهيلة .. فالدوامة التى جرفتنى أعجزتنى عن معرفة رأسى من رجلىَّ .. يبدو فعلا أن الأمور قد اختلطت علىَّ !!

ـــ سيفرح عصام بك بهذا التغير .. كان دائما يقول إنك ابنته الحبيبة !

ـــ ستأتين معى بإذن الله !!

ضحكت سهيلة ضحكتها الماجنة فاهتزت عجلة القيادة فى يديها وهى تنحرف يسارا إلى الشارع الذى تقطن فيه نورا :

ـــ إنه لن يأكلك يا حبيبتى .. فأنت امرأة ناضجة وتعرفين كيف تسير الدنيا .. على كل حال سآتى لأدلَّك على الشقة .. وربما تركتك لمساعدة برعى فى تنظيم صفحة الفكر .. فقد ترك عصام بك كل المسئولية على رأس برعى فى يومى الاعتكاف والتأمل !!

توقفت العربة أمام مدخل العمارة التى تقطنها نورا التى شعرت أنها مقدمة على امتحان لا بد أن تجتازه بطريقة أو بأخرى . تساءلت فى خوف :

ـــ وهل تعتقدين أننى سأوفق فى هذه المهمة ؟!

ـــ كل شىء يتوقف عليك أنت !! إن عصام بك لا يبخل بشىء على

أحبائه !! كما لا تنسى أنك أيضا جارته . فأنت فى القصر العينى وهو فى جاردن سيتى !..

هبطت نورا من العربة محتضنة ابنها وإلى جوارها شريف الذى كان يتابع ما يدور بعينين حائرتين دون أن يفتح فمه بكلمات لم يجدها أصلا ..
انحنت نورا مادَّة يدها بالسلام :

ـــ لا أعرف كيف أرد جميلك يا سهيلة ؟!

شدَّت سهيلة عليها بنفس الحرارة :

ـــ سأمر عليك فى السادسة مساء .. وسأخبره بقدومك .. وسلامة جمال ألف سلامة !.

اغرورقت عينا نورا بالدموع فى حين انطلقت العربة وإطاراتها تحدث أزيزا مزعجا فوق القار الذى يغطى الشارع المزدحم بالسيارات والبشر السائرين على غير هدى .

ـــ ١٠ ـــ

ـــ أهذه هى الحال التى آلت إليها صفحة الفكر ؟! أخبار تافهة عن نكرات .. وأفكار عفنة أكل عليها الدهر وشرب .. وموضوعات إنشائية لا ترقى إلى تلك التى يكتبها تلاميذ المرحلة الإعدادية .. الحمد لله أننى لم أبق فيها حتى الآن !

كان حسام يقود عربته فى شارع الفجالة المزدحم فى طريقه إلى الجريدة لتوصيل نجلاء ولزيارة صديقه أحمد عامر الذى أصبح يشتاق لجلسته من حين لآخر . كان وجه نجلاء يميل إلى الصفرة نتيجة لمرحلة الوحم الشديدة التى أصابتها بقىء لازمها أسبوعا بصفة شبه منتظمة .
كانت العربة تقف فى إشارة ميدان رمسيس تحت الكوبرى العلوى الذى يحاصر تمثال رمسيس من كل جانب . تساءلت وهى تتأمل التمثال العظيم وقد غطته الأتربة الممتزجة بسواد الدخان المنبعث من القطارات وعادم السيارات :

ـــ وهل تتوقع غير ذلك من رجل فى تفاهة برعى وسطحيته ؟! إنه لا ينشر خبَرا أو عرْضا لكتاب إلا فى مقابل خدمة أو هدية أو مبلغ من المال يحدِّده هو بنفسه ، بل قال إنه سينشر أخبار نجوم السينما والرقص والغناء .. فهى كلها فى نظره تنضوى تحت بند الفكر والثقافة !

ـــ إذا لم تستح فاصنع ما شئت !.

ـــ الغريب فى الموضوع أن سهيلة أصبحت تحوم حولى هذه الأيام محاولة اكتساب صداقتى .. بل إننى نسيت أن أقول لك إنها قابلتنى أمس عند المدخل وأخبرتنى أن عصام قدرى لا يكنّ لك سوى الحب والتقدير !.

ابتسم حسام ابتسامة ساخرة وهو ينطلق عبر ميدان رمسيس إلى شارع الجلاء :

ـــ ولهذا الحب والتقدير عمل كل ما فى وسعه لتشريدى ؟! وهل صدَّقت ما قالته هذه الأفعى ؟!

ـــ لم أصدقه بالطبع .. بدليل أننى نسيت أن أخبرك به بالأمس !

ـــ وهل قالت لك شيئا آخر ؟!

ـــ قالت إن عصام بك يترك أعماله تتكلم بدلا من رفع الشعارات الجوفاء !! ولذلك ساعد نورا على السفر إلى إسبانيا لعلاج ابنها دون أن تطلب منه ذلك ! وقد سافرت بالفعل !

ـــ وأنت ما رأيك فى موضوع نورا هذا ؟!

ـــ لا أستطيع أن أجزم بشيء على وجه التحديد .. خاصة وأننى شعرت أن نورا تجنبتنى فى الأيام الأخيرة .. ولم أحاول بدورى أن أفرض نفسى عليها !! لكن الإشاعات والهمسات التى يتناقلها المحررون فيما بينهم ليست فى صالحها على الإطلاق .. فليس من المعقول أن تتغير المعاملة هكذا بين يوم وليلة دون سبب معقول !!

ـــ إن بعض الظن إثم يا نجلاء ! فقد ظلّت نورا صامدة معنا برغم ظروفها الأسرية الصعبة !.

ـــ عندك حق !! فلا يمكن أن تصل النذالة بعصام قدرى الحد الذى يستغل فيه محنة أرملة مكافحة مثلها !!

ـــ يبدو أن الهواية المفضلة عندنا الآن هى تشويه صورة الآخرين والإساءة إلى سمعتهم ! حتى نورا لم تسلم من ألسنة السوء ! إن من حقّها السفر مثل أى محرر بالجريدة التى يتحتم أن تساعدها فى محنتها !

انحرفت العربة لتقف أمام مدخل الدار . هبطت منها نجلاء لينطلق بها حسام إلى هيئة البريد . صعدت نجلاء السلم وعندما حيَّت موظف الاستعلامات القابع وراء مكتبه فى المدخل فوجئت به وهو يخبرها بأن عصام بك أمر بأن تتوجه فور وصولها إلى مكتبه . دق قلبها فى عنف ، وزادت صفرة وجهها ، وشعرت بقطرات العرق تتساقط داخل فستانها الأبيض الذى ارتدته ظنًّا منها أنه سيخفى بطنها المتكوِّر الذى لم يلحظه أحد بعد لصغره .

وقفت أمام المصعد فى انتظار هبوطه والقلق ينهشها لدرجة أنها عجزت عن تخمين السبب وراء هذا الاستدعاء المفاجىء ، خاصة وأنها لم تقابله أبدا من قبل بصفة شخصية . هل سيبلغها أنها نقلت أيضا إلى هيئة البريد ؟! إذا كان هذا هو السبب فلن تمانع أيضا ! فقد ماتت رغبتها فى الصحافة بعد نقل حسام ، وتولّى برعى الصفحة ، وسجن عبد الحليم رضا ومنسى ! أصبح ذهابها إلى الجريدة مجرد سد خانة ، حتى لا يؤخذ غيابها على محمل التمرد أو الرفض ، فكفى ما جرى لهما ! بل إنها سعدت للغاية عندما لم يكلفها أحد بكتابة موضوع أو إجراء حديث أو جمع أخبار .

حيَّت نجلاء بعض الزملاء والزميلات بإيماءة شاردة ، ثم دسَّت نفسها

داخل المصعد الذى وقفت فيه دون أن تتبادل كلمة واحدة مع من تعرفهم . سارت فى الممر وقد شلَّ تفكيرها تماما إلى أن بلغت المكتب . امتزج القلق بالذهول عندما نهضت السكرتيرة بمجرد أن رأتها وفتحت لها باب المكتب الكبير :

ــ تفضلى .. عصام بك فى انتظارك !

قادتها قدماها إلى ذلك القابع خلف مكتبه محاطا برائحة البخور الهندى المنبعث من عود أمامه ، ومداعبا حبات سبحته . أغلقت السكرتيرة الباب خلفها فشعرت كمن وقع فى مصيدة ! نهض عصام قدرى مادًّا يده بالسلام وابتسامة عريضة تغطى وجهه . سلَّمت عليه دون أن ترفع عينيها ، ومن فمها خرجت بعض الألفاظ المبتورة المتلعثمة . لكنها شعرت بيده تضغط على يدها بطريقة لم تفهمها . جلست وأشار لها بالجلوس بحركة مسرحية فجلست . مع اتساع مساحة الابتسامة قال :

ــ إنها أول مرة أراك فيها .. وأرجو ألا تكون الأخيرة .. فقد سمعت عنك كثيرا من حسام .. فهو متحمس لك كصحفية مثقفة .. أما حماسه لك كزوجة فلا أعرف عنه شيئا لأننى لا أحب التدخل فى الحياة الخاصة لمن يعملون معى ؟!

تحوَّلت ابتسامته إلى ضحكة أرستقراطية . لم تعرف نجلاء إذا كانت تجاريه فى الابتسام أو تلتزم الجدية ؟! فقد خانتها المشاعر والكلمات فلم تجد ما تعبر به سوى الصمت المتوتر فى انتظار كلماته التى ستحدد سبب هذا الاستدعاء الغريب :

ــ لك الحق كله فى دهشتك من طلبى رؤيتك .. لكننى قررت الاقتراب كأخ وصديق من كل المحررين والعاملين وخاصة هؤلاء الذين لا يرون صورتى الحقيقية نتيجة لعوامل سوء الفهم أو سوء التفاهم التى نتجت عن الفترة الماضية بكل سلبياتها وإيجابياتها ..

صمت عصام ليشعل غليونه المعطر الذى امتزجت سحاباته المنطلقة من فمه بدخان البخور الهندي ، فأشاعت داخل نجلاء اختناقا مخدرا ضاعف من تشتت أفكارها . ركّزت عينيها على عود البخور ، فاستأنف عصام مداعبا حبّات سبحته :

ـــ إننى لا أكنّ لحسام أية ضغينة .. فهو واحد من أبنائى المثقفين النابهين .. وما حدث لم يكن لى فيه أى دخل !! فقد كان التيار أقوى منا جميعا ... ولذلك حزنت للغاية على قرار نقله إلى هيئة البريد .. وزاد حزنى عندما أدركت الحالة المؤسفة التى وصلت إليها صفحة الفكر !!

وسط خضمّ الأحاسيس المضطربة خرج صوت نجلاء دون تفكير :

ـــ فى الحقيقة يا فندم .. أنا فى غاية الذهول لسماعى هذا الكلام من سيادتك شخصيا !.

صمتت . انتظرها حتى تستمر وتكمل لكن الصمت طال ، قال :

ـــ طبعا .. لأن خصومى وأعدائى حاولوا تشويه صورتى قدر إمكانهم .. وخاصة فى نظر المحررين الشبان .. ونظرا لأننى لا أحب الصراعات والعداوات فقد قررت إصلاح صورتى بنفسى .. ليس بالكلمات والشعارات البراقة ولكن بالخطوات العملية !!

بدأ الصفاء فى العودة إلى ذهن نجلاء :

ـــ إذا كنت سيادتك غير راض عن صفحة الفكر .. فلا بد أن فى ذهن سيادتك خطة للارتفاع بها إلى مستواها القديم ؟!

سحب عصام نفسا عميقا من غليونه . أسبل عينيه مع دقّات حبات المسبحة ثم خرج صوته عريضا هادئا ناعما :

ـــ أرجو ألا تتصورى أننى غير راض عن برعى .. فأنا أعرف أن إمكاناته فى تنظيم الصفحات وتنسيق المقالات والموضوعات والإعلانات أفضل بكثير من قدراته الفكرية .. ولذلك فأنا أنوى أن أجعل منه سكرتيرا

للتحرير !..

صمت عصام متأملا ملامح نجلاء التى ارتسمت عليها بوادر ابتسامة لا معنى لها سوى أن الارتياح بدأ فى شق طريقه داخلها .. تساءلت :

ــ وهل سيجمع الأستاذ برعى بين سكرتارية التحرير والإشراف على صفحة الفكر ؟!

ــ سؤال وجيه وذكى ! بالطبع لا .. ولهذا السبب استدعيتك لآخذ رأيك فى هذا الموضوع بحكم أنك أقدم العاملين فى الصفحة بعد برعى !.

تمسَّكت نجلاء بصفاء ذهنها بعد أن اعتادت الجو والحوار :

ــ إن القرار قرار سيادتك .. وليس لى أن أدلى بما ليس هو من حقى !

ــ إن الديمقراطية فى نظرى ممارسة عملية وليست مجرد شعارات .. ولذلك فأنا أحب أن أستنير بآراء الأجيال الجديدة حتى لا أنفصل عنها أو أسيء فهمها !.

ــ لا أعتقد أن من حقِّى أن أرشح لسيادتك من يخلف الأستاذ برعى فى صفحة الرأى !

ابتسم عصام فى سعادة غامرة :

ــ تعجبنى هذه الدبلوماسية الذكية .. ولذلك سأكون أكثر صراحة .. إننى فى الواقع أريد إثبات حسن نيتى عمليا تجاه حسام .. فلم أعد أحتمل الظلم الذى وقع عليه !!

عاد عصام إلى التمعُّن فى وجه نجلاء التى تساءلت فى تلقائية :

ــ وهل يمكن إعادة حسام بمفرده إلى الجريدة .. دون عودة زملائه المبعدين معه ؟!

ــ إننى أعدك ببذل ما فى وسعى حتى أثبت لك وله حُسن نيَّتى .. لكن ماذا سيكون موقفك منى إذا كلِّلت مساعىَّ بالنجاح ؟!

ومض السؤال فى ذهن نجلاء كالبرق فلم تستوعب كل أبعاده :

ــ لن أنسى لسيادتك هذا الجميل أبدًا .. فحسام يعيش حالة من الضياع والإحباط واليأس لم يمر بمثلها من قبل !

ــ بمعنى أوضح .. هل ستصبحين ابنتى المطيعة الحبيبة إذا عاد حسام إلى الإشراف على صفحة الفكر ؟!

ابتسمت نجلاء فى منتهى العذوبة والبراءة :

ــ ليس فى هذا أدنى شك .. كما أحب أن أقول لسيادتك أننى وحسام لم نُكِنّ لك سوى كل احترام وتقدير !

تظاهر بالجدية :

ــ الاحترام والتقدير لا يكفيان .. فهما يصدران عن علاقة رسمية أو شكلية .. ولذلك أعتقد أن الحب يأتى فى مقدمة هذه الاعتبارات .. ما رأيك فى هذا ؟! أقصد ما رأيك فى الحب ؟!

ابتسمت محرجة ولم تعرف موقع كلماتها :

ــ إننى لا أكن الاحترام والتقدير إلا لمن أحبه !

انتشى عصام بالإجابة التى انتزعها من بين شفتيها المكتنزتين :

ــ إذا كان هذا هو المقابل .. فلن أتوانى لحظة حتى أعيد حساما إلى صفحته وداره وبيته !

لم تستوعب نجلاء أبعاد الموقف المتقلب تماما ، فدارت حرجها بنفس الابتسامة العذبة البريئة :

ــ شكرا !..

أطلق نفَسا عميقا من الدخان المعطر وعلّق فى سعادة غامرة :

ــ هل تعرفين أن لك ابتسامة فى منتهى السحر والجمال والدلال ؟! ابتسامة لم أر مثلها من قبل ! لقد زرت معظم بلاد العالم فلم أجد أروع من الجمال المصرى !!

تململت نجلاء فى مقعدها عندما انحرف بها مسار الحوار إلى منطقة مجهولة لم تكن تتوقعها ، لكنه استمر فى حديثه :

ــ لعلك لا تعرفين أننى كنت صديقا لفتاة إنجليزية عُدت بها بعد انتهاء بعثتى فى إنجلترا لدراسة الصحافة ، كان أبوها عضوا فى مجلس اللوردات وأمها تنتمى إلى إحدى الأسر العريقة فى اسكتلندا .. لم أعبأ بها برغم جمالها لكنها تعلقت بى تعلقًا شديدًا أعجزنى عن أن أكسر خاطرها .. وقد أتسبب فى انتحارها فيطاردنى الإحساس بالذنب كل عمرى .. واضطررت للعودة بها إلى مصر مرغمًا لا مغرمًا .. وعندما فوجئت بعشقى للجمال المصرى قتلتها الغيرة .. وحاولت الضغط علىَّ حتى أتزوجها .. لكننى صارحتها بأننى لم أخدعها منذ البداية .. فقد أكدت لها أننى تزوجت الصحافة ولن أسمح بأن تشاركها ضرَّة فى قلبى .. وعندما يئست من تكبيلى بقيد الزواج عادت مقهورة وهى تلعن المصريات ذوات العيون الواسعة السوداء الساحرة مثل عينيك !..

بحركة لا إرادية محضة أغمضت نجلاء عينيها وقد بدأت تفكر جديا فى كيفية إنهاء المقابلة ، لكن إحساسها بأن احتمال عودة حسام للإشراف على صفحة الفكر أصبح قائما ، جعلها تترك الأمور تجرى فى أعنَّتها لثقتها المطلقة فى نفسها ، والتى عادت إليها الآن كأقوى ما تكون . إنها سيدة موقفها الآن وستحقق لزوجها وحبيبها وأستاذها ما سينتشله من بركة الضياع التى غرق فيها حتى القاع ، برغم تظاهره بسعادته البالغة بنقله إلى هيئة البريد وصداقته لأحمد عامر ، وادّعائه أنها إجازة ممتعة بأجر مدفوع ، وأن من الحماقة أن يلهث الإنسان وراء الشقاء فى حين تجبره الدولة على الراحة والاستجمام .

ظن حسام أن نجلاء سرحت بخواطرها ومشاعرها مع كلماته المعسولة . غمرته السعادة وقام لإشعال عود بخور جديد ثم جلس قبالتها

فلاحظ قوامها الرشيق ، وسمرتها الدافئة ، وفمها الدقيق المحاط بشفتين مكتنزتين ، وشعرها القصير الأسود الناعم ، وثقتها فى جاذبيتها التى تجلّت فى رفضها وضع أية مساحيق على وجهها ، والتحلّى بالخواتم والسلاسل والأساور . كذلك لاحظ مسحة من الصفرة تمتزج بسمرتها ، فتأكد أنها نتيجة المحنة التى يمر بها زوجها ، لكن عندما تعود المياه إلى مجاريها فلا بد أن تسعد كل الأطراف المعنية . مدَّ يده عبر المائدة الصغيرة المنخفضة وربت على ركبتها بحنان أبوى دافق :

ــ سيعود حسام بإذن الله .. وبأسرع ما يمكن .. ففى النهاية لا يصح إلا الصحيح !..

لم تبعد ركبتها عن يده ، فلم تكن فى المقعد ثغرة تسمح لها بحرية الحركة ، لكنها انتهزت هذه الجملة التى اعتبرتها ختامية ونهضت مبتسمة سعيدة ، بل وواثقة من قدرتها على التأثير على عصام حتى يسعى للإفراج عن عبد الحليم رضا ومنسى . إنه ليس ذلك الوحش المرعب الذى صوَّره لها حسام ، بل مجرد رجل ضعيف مهزوز يكذب عليها محاولا إخفاء خيانة زوجته الإنجليزية التى تطارده فى ليله ونهاره . ورجل بهذه العقدة المتحكمة فى فكره وسلوكه ، يمكن أن يتحوَّل إلى أداة طيِّعة فى يد من يعرف كيف يستخدمه جيدا . مدَّت يدها مبتسمة وهى تنظر إلى شعره المصبوغ الداكن فى وقفته أمامها :

ــ أنا فى غاية الشكر يا عصام بك .. إن زوجى سيسعد كثيرا عندما أخبره بما دار بينى وبين سيادتك !

أمسك بيدها فى حرارة بالغة فى حين وضع سبابة يسراه على شفتيه ، فلم تعرف إذا كان يقبِّلها أو أنه يحذِّرها :

ــ لا أحب الحديث إلا عن الحقائق المادية الملموسة ، فلنجعلها سويًّا ــ أنا وأنت ــ مفاجأة له عندما يصدر القرار .. إنه يستحق كل

خير !!

زاد من ضغطه على يدها فلم تعبأ :

ـــ تبدو فى كلام سيادتك ثقتك الكاملة بصدور قرار إعادة حسام إلى الجريدة ؟!

ـــ سيعود بضمانتى .. أى على مسئوليتى .. ولذلك أرجو أن يتخلّى عن شطحاته الثورية .. وعليك ترويضه حتى لا يرد جميلى فى عنقه بوضع حبل المشنقة حول عنقى !!

ضحك عصام ضحكته الأرستقراطية فى حين علّقت نجلاء وهى تسحب يدها من يده برقة لا تُحسّ :

ـــ اترك لى مسألة ترويضه .. فقد أصبحت مسألة سهلة بعد الصدمة التى طاشت بصوابه وإن كان يتظاهر بغير ذلك !.

ربت على كتفها فرثت لحاله :

ـــ لم أكن أعرف أن الحوار والحديث والثرثرة معك متعة لا تعادلها متعة .. أرجو أن تتكرر هذه الجلسات .. وأية مشكلة أو عقبة ستجديننى طوع بنانك .. فأنا أعشق الشباب وصحبة الشباب !!

انحنت له فى سعادة حافلة بكل المتناقضات :

ـــ لا أعرف كيف سأردُّ هذا الجميل الكبير ؟!

ـــ لن يخونك ذكاؤك فى هذه النقطة بالذات ! فأنت تلتقطين الأفكار قبل أن تتحول إلى كلمات !.

لم تستوعب الجملة الأخيرة فى تراجعها بظهرها إلى الباب ، أسرع وفتح لها الباب وهو يتظاهر بالابتعاد عن جسدها بقدر الإمكان . فى لحظة خروجها نظرت إليها السكرتيرة نظرات لم تفهم نجلاء معناها ، لكنها لم تهتم . فقد كانت وقائع اللقاء شغلها الشاغل لدرجة أنها أرادت أن تخلو إلى نفسها لتحلّل وتتأمل وتفسّر كى تحدّد وقع خطواتها المقبلة .

بمجرد اختفائها عاد عصام قدرى إلى مقعد مكتبه الوثير . أشعل غليونه وشحن جو الغرفة المكيَّف بسحابات جديدة . لم ينهض لإشعال عود جديد بدلا من ذلك الذى بلغ نهايته . تأمَّل الثريا البللورية الفاخرة فى سقف مكتبه . أسبل عينيه وسمع صوتا ينبعث من أعماقه :

ــ كلهن شارون .. الاختلاف الوحيد أنها كانت أكثرهن صراحة ! وأقلَّهن ادعاءً !!

ــ ١١ ــ

لاحظ حسام إقبال نجلاء على الطعام فى روح معنوية عالية بعد أسبوعين من إضراب شبه كامل عنه . ظن أنها تفتعل هذه الحيوية حتى يصاب هو الآخر بعدواها ، فأكبر فيها هذه الروح العظيمة التى لا تتأتى إلا لذوى العقول والقلوب الكبيرة . لكنه لاحظ أيضا اعتدال لهجتها فى الحديث عن عصام وسهيلة وبرعى ، وتضاؤل اهتمامها السابق بما يحكيه لها عن القضايا والأفكار التى يناقشها مع أحمد عامر فى زياراته المتقطعة لهيئة البريد . صحيح أنه كان يود أن يعمل فى أية جريدة أخرى ، أو أن يسافر للعمل بالصحافة فى الدول العربية ، لكنه تعلَّم ــ بعد أن سدَّت كل المنافذ فى وجهه ــ أن يقنع بالأمر الواقع إلى أن يتغير من تلقاء نفسه ، لأنه تأكَّد أن من الحماقة أن يحاول تغييره ، وإلا كان مصيره أسوأ من عبد الحليم رضا ومنسى ، خاصة وأن الحنين أصبح يقتله كلما داعب خياله ذلك القادم من عالم الغيب بعد ستة أشهر وبضعة أيام .

كانت نجلاء تمنى نفسها بصدور قرار عودة حسام ، وإن كانت تخشى من بقايا المثالية الثورية عنده ، والتى يمكن أن تدفعه إلى ركوب رأسه ورفض العودة بمفرده دون زملائه . ذلك أن الجميع ــ وخاصة الذين

أبعدوا لاستماعهم إلى تحريضه ضد عصام ــ سيتهمونه بأنه باعهم له .
لكنها ستبذل أقصى ما فى وسعها لإقناعه بأن عودته يمكن أن تكون المقدمة الطبيعية لعودة الباقين ، كما حدث من قبل فى آخر شهر سبتمبر عام ١٩٧٣ عندما صدر قرار إعادة جميع الصحفيين إلى عملهم بعد تشتيت لهم دام أكثر من نصف عام ، أى قبل حرب أكتوبر بأسبوع واحد . وكان من الممكن أن يشرد حسام مثلهم ، ولم يكن مضى على تعيينه أكثر من ثلاث سنوات ، لولا أنه أمضى شهر فبراير من نفس العام ، وهو الشهر الذى تم فيه تحديد أسماء المبعدين ، مع الفدائيين الفلسطينيين فى بعض هجماتهم الأسطورية على المستعمرات الإسرائيلية ، وتعرض لخطر الموت عدة مرات ، فى إحداها افتداه فدائى فلسطينى متلقيا الرصاص فى صدره بدلا منه . وعاد حسام فى مارس والتجربة المثيرة تملأ عليه عقله ووجدانه ، ولم تترك فيهما ثغرة واحدة لقضية الزملاء المبعدين كى تحوز على اهتمامه . فقد أكد له حماسه المبكر أن فلسطين هى القضية الكبرى التى يجب أن تكون الشغل الشاغل لكل العرب ، أما القضايا المحلية فليست سوى تقلصات وتشنجات سرعان ما تزول .

وبالفعل زالت هذه التقلصات والتشنجات فى أعقاب حرب أكتوبر . فقد ظن الجميع أنها الحرب التى ستضع حدا للمعاناة التى استمرت أكثر من ربع قرن . وعادت آلام التقلصات والتشنجات مرة أخرى ولكن بصورة مخففة نتيجة للمسكنات التى كان الشعب يحقن بها من حين لآخر . ولم يكن حسام يعتقد أن تعيين عصام قدرى رئيسا لمجلس الإدارة والتحرير من قبيل الصدفة ، بل كان فى نظره مقدمة طبيعية لحركة الإبعاد والتشتيت التى أصابته هذه المرة ، خاصة وأن عبد الحليم رضا كان يؤكد فى معظم كتاباته وأحاديثه أن دور الصحافة يتمثل أولا وقبل أى شىء آخر فى نقل

رأى الشعب إلى الحاكم . أما عصام قدرى فكان يرى العكس تماما . ولذلك فهو رجل هذه المرحلة القاتمة الكالحة ، المبادر إلى البطش بكل من تسول له نفسه أن يلمح برأى معارض أو مختلف . ولذلك سرعان ما نفذت حركة التشريد التى سميت مجازا بحركة التطهير على سبيل التخفى وراء الشعارات القومية والوطنية ، فى أعقاب تولى عصام قدرى المسئولية العليا فى المؤسسة . وهى حركة كان من الصعب القيام بها فى عهد عبد الحليم رضا . كذلك كانت سعادة عصام قدرى لا توصف عندما تم سحب تراخيص كل صحف المعارضة وإغلاقها ، فقد ظن أن الأمور قد دانت له تماما ، ولم يعد هناك من يقوم بتعريته على حقيقته أمام الملأ .

هكذا أصابت التقلصات والتشنجات حساما هذه المرة . لكن نجلاء ظنت أن الصدمة التى أصابته لن تمر دون أن تغير فيه شيئا برغم صلابته التى يفخر أنه استمدها من جبال الصعيد الأعلى حيث مسقط رأسه . كان حنينه للصحافة مشتعلا لكن الكبت أفقده توهجه وجعله يعيش حالة غريبة من الإحباط والاستسلام ، وهى حالة لم تكن تخطر على باله فى يوم من الأيام ، وهو الذى كان شعلة الإصرار والتحدى والكبرياء والثقة لكل من احتك به وتعامل معه . ولذلك كانت نجلاء تخاف عليه من استمرار هذه الحالة التى ربما دمرته من الداخل إذا لم تجد ما تدمره فى الخارج . وكثيرا ما دعت الله أن يلهمها إلى ما فيه الخير لمستقبلهما ومستقبل الطفل القادم الذى ظنت أن الله منّ به عليها ، بعد طول حرمان ، حتى يمنح السلوى لحسام فى محنته التى ترجو أن تكون عابرة .

وعندما فاتح عصام نجلاء فى موضوع عودة زوجها إلى الإشراف على صفحة الفكر ، وليس فى مجرد عودته للعمل محرراً ، كانت كالغريق الذى أمسك بقشة تمنى أن تتحول بمعجزة إلى لوح خشب يصل به إلى بر

الأمان . ولذلك فهى لا تزال تعانى من الشك فى قدرة عصام على العمل والسعى لإصدار مثل هذا القرار الذى إذا صدر كما وعد ، فلن يعنى سوى أن القرار العام لإبعاد الصحفيين ، كان بهدف الانتقام والتنكيل الشخصى بهم ، وليس بناء على مصلحة قومية عامة كما قالت الضجة الإعلامية التى صاحبته . ومع ذلك تمنت نجلاء أن تكون عودة حسام المحتملة فاتحة خير لجميع المبعدين والمنفيين والمشردين والمضطهدين والمسجونين ، فطالما أن المبدأ لم يعد قاعدة عامة تطبق على الجميع ، فإن الاستثناء الذى سيفوز به حسام يمكن أن يفتح ثغرة ليمر منها الآخرون .

كانت نجلاء تأمل أن يقتنع حسام بمنطقها هذا فى حالة صدور القرار الذى لن تخبره به إلا إذا أصبح حقيقة ملموسة . عاشت أياما ممزقة بين الأمل فى صدور القرار والأمل فى قدرتها على إقناع حسام بتقبله . وكان كل يوم يمر دون أن يتحقق الوعد ، يضعف من الأمل الذى حاولت الاحتفاظ به قدر طاقتها حتى لا يحاصرها صقيع اليأس الذى يكاد يوقف جريان الدماء فى عروق حسام . وفى حمية التمزق بين الأمل واليأس لم تسأل نفسها عن مصلحة عصام الشخصية فى القيام بهذه الخدمة الخاصة الثمينة لها ولزوجها . فقد عللت نفسها وأقنعتها بأن إحساس عصام بالذنب هو الذى دفعه لاتخاذ هذه الخطوة تكفيرا عن الظلم الذى حاق بزوجها ، دون ذنب جناه سوى عمله المخلص من أجل مصر ، وحماسه المطلق لقضايا الثقافة ، واتخاذه من الصحافة رسالة وحياة وليست مجرد منصب ووظيفة وارتزاق .

وقد قامت سهيلة بدور لا يستهان به فى ترسيخ حسن ظن نجلاء بعصام . فكانت تحكى لها عن مساعيه المستميتة لدى المسئولين من أجل إصدار القرار . وصدقتها نجلاء لأن عصاما ــ على غير عادته ــ قل تردده على مكتبه بشكل ملحوظ فى الأسبوع الأخير . وذات يوم قضاه

حسام عند الميكانيكى لإصلاح عطل فى سيارته ، سارعت سهيلة لتوصيل نجلاء بسيارتها إلى بيتها لأنها حامل ولا تحتمل المواصلات العامة أو البحث عن تاكسى على حد قول سهيلة . وعندما تمنعت نجلاء محرجة ، أكدت لها أنها لن تتكلف أية مشقة فهى تقطن فى عمارة تطل على شارع رمسيس ، أى أنها جارتها ، لأن شارع قصر اللؤلؤة يربط بينها وبين بيت نجلاء فى الفجالة ، والمسافة لا تستغرق أكثر من عشر دقائق سيرا على الأقدام . وأخيرا رضخت نجلاء لإلحاح سهيلة ، وفى الطريق إلى بيتها أعادت النظر فى كل الأفكار التى سبق لها أن كونتها ورسخت فى ذهنها عن سهيلة .

أما حسام فكان سعيدا بصداقته لأحمد عامر ، وهى صداقة لم تقتصر على زيارته له فى مكتبه ، بل امتدت إلى الزيارات المتبادلة فى المنزل . وكثيرا ما سهر حسام مع عامر فى شقته بالعباسية تاركا نجلاء تقوم بأعمال الطبخ والتنظيف ، لكنها لم تتضايق بل كانت تسعد لكل ما من شأنه أن يمتص الشحنة التى تثقل عقله وقلبه . خاصة وأن المناقشات بينه وبين عامر كانت تغطى كل القضايا التى تهم حسام ، وتظهر اتفاقا عجيبا بينهما فى وجهات النظر ، لدرجة أنهما شعرا أن صداقتهما فى حقيقتها تمتد إلى سنين عديدة ولا تقتصر على مجرد شهر أو شهرين . حتى ضجيج ميدان العباسية بزحامه واتوبيساته لم يصل إلى أذنى حسام وهو جالس مع عامر فى شرفة بيته منهمكا معه فى تحليل التيارات التى تجتاح مصر مع هبوب رياح الخريف المثيرة للأتربة فى العيون .

الشيء الوحيد الذى عكر صفو نجلاء فى غياب حسام كان العطل الذى أصاب التليفون وجعلها تشعر بعزلة قاتلة هربت منها فى بعض الأحيان بزيارة أمها التى تقطن بالقرب منها فى الفجالة أيضا . لكن الأعمال المنزلية كانت تجبرها فى معظم الأحيان على أن تلزم عقر دارها . وفى الأيام التى

أعقبت نقل حسام كانت تسمع بعض الدقات الغريبة فى أثناء المكالمات التليفونية مما جعلها تشك فى أن الخط تحت الرقابة التى تقوم بتسجيل مكالماتهما . وعندما عبرت عن شكوكها لحسام ، قال لها إنهما ليسا من الأهمية بمكان بحيث تتفرغ أجهزة الدولة لهذه المهمة . فالدولة لا تعرف شيئا عن حسام السيد إلا عن طريق عصام قدرى الذى شوه صورته لديها ، وهى لن تراقبه إلا إذا كان عصام أوحى إليها بخطورته الوهمية على الأمن .

وعندما تعطل التليفون ظنته نجلاء تأكيدا لشكوكها ، لكن حساما أكد لها أن التليفون المراقب لا يمكن أن يصاب بالعطل ، وهذا أكبر دليل على صدق ظنه . وذهب عدة مرات إلى السنترال راجيا إصلاحه ، وقوبل بالابتسامات والتأكيدات البالغة على أنه بمجرد بلوغه بيته سيجد الاصلاح قد تم . لكن شيئا من هذا لم يحدث ، برغم أنه أكد لهم فى كل مرة أن وظيفته تجعل من التليفون ضرورة ملحة فى بيته . وعندما يئس تماما ، توقف عن التردد اليومى على السنترال ، وعاش على أمل العودة الفجائية لحرارة التليفون ، تماما كما تشبث بأمل عودته الفجائية إلى الصحافة ، إذ يبدو أن إرادة الإنسان فقدت كل تأثيرها على ما يجرى له . وبرغم أن معظم زملاء حسام فى الجريدة ، لم يهتموا كثيرا بالاتصال به تليفونيا ، فإن انقطاع الحرارة كثف احساسه بالمصائب المتوالية . فقد كان من المؤمنين بأن المصائب لا تأتى فرادى .

سمعت نجلاء صوت حسام بين المنام واليقظة وهو يخبرها بذهابه لزيارة أحمد عامر . لم تتبين ملامح وجهه جيدا لكنها قالت :

ــ مع السلامة ..

بعد لحظات سمعت صوت إغلاق باب الشقة . نهضت جالسة فى فراشها وهى تقول لنفسها : اللهم اجعله خيراً . فقد غمرتها موجة من الاكتئاب نتيجة للأحلام المبعثرة المتناثرة التى عكرت عليها نوم القيلولة . فقد حلمت أنها زارت مع حسام الطبيب الذى كشف عليها وأخبرها أن الجنين فى خطر ، وعليها أن تهتم براحتها وتغذيتها وبحالتها النفسية ، وأن تعتاد رياضة السير على الأقدام نصف ساعة على الأقل كل مساء . ضايقها الحلم على الرغم من أنهما زارا الطبيب بالفعل فى اليوم السابق ، وطمأنها تماما على أن الحمل طبيعى وكل شىء على ما يرام .

قاومت إحساسها بالكآبة بمجرد تذكرها لكلمات الطبيب المشعة بالطمأنينة . لكنها تذكرت حلما آخر رأت فيه رجلا غامض الملامح ، دخل شقتهما فى منتصف الليل وقام بقطع سلك التليفون وتحطيم الجهاز ، وعندما قاومه حسام ، أمسك به من عنقه وألقى به من الشرفة ، فسقط على قضبان الترام الذى سرعان ما سار على جثته بعجلاته الحديدية. صرخت صرخة مكتومة لكن أحدًا لم يسمعها. تذكرت أنها تنبهت قليلا ورأت زوجها وهو يقوم بارتداء ملابسه ، لكن النوم جذبها مرة أخرى ورأت نفسها جالسة فى العربة الصغيرة إلى جوار حسام الذى دخل بها فى سباق مع عربة عصام قدرى الكبيرة القوية بطول شارع رمسيس برغم ازدحامه بالعربات المنطلقة كالسهام . حاولت أن تنبهه إلى خطورة

ما يفعل لكنه لم يستمع إليها . ولم يهدأ بالها إلا عندما انطلقت عربة عصام كالصاروخ واختفت فى حين وجد حسام عربته البيضاء الصغيرة تدور بعجلاتها بسرعة مذهلة ، ومع ذلك ظلت « محلك سر » . تذكرت نجلاء يوم احتكت عربتهما بسيارة أخرى بعد خروج حسام من أول اجتماع عقده عصام برياسته لمجلس التحرير . وحمدت الله على أن وضع « محلك سر » لا يحمل فى طياته أية خطورة على سلامة العربة . لكن سرعان ما جاءت سهيلة بعربتها وصدمتهما من الخلف صدمة أحالت العربة إلى أشلاء دقيقة .

كان نوما متقطعا وثقيلا فى الوقت نفسه . ولذلك استيقظت بمجرد أن سمعت صوت حسام وهو يخبرها بذهابه لزيارة صديقه . نظرت إلى المنبه القابع على الكومودينو إلى جوارها فوجدته يشير إلى السابعة مساء . تكاثفت سمرة المغيب فأفقدت أثاث غرفة النوم ملامحه المحددة . أضاءت نور الأباجورة هربا من كآبتها . نظرت إلى نفسها فى مرآة الدولاب المواجه لسريرها فوجدت نفسها شبه عارية دون أن تشعر . لم تكن ترتدى سوى قميصا فستقياً شفافاً قصيراً . فقد كانت حرارة سبتمبر أكثر قسوة من أغسطس على غير العادة . شعرت بالعرق تحت ابطيها وبين ساقيها ، فرأت أن الحمام الدافىء خير وسيلة لاسترخاء أعصابها المشدودة .

استعادت نشاطها وهرعت إلى الحمام . ملأت البانيو بالماء الدافىء الذى أحاط جسدها المنهك بحنان كانت فى أشد الحاجة إليه . ربتت على بطنها فى حنو بالغ لكنها تعجبت أنه لم يتكور بما فيه الكفاية حتى يتناسب مع نهاية الشهر الثالث من الحمل . سرى الاسترخاء فى جسدها ومعه إحساس غامض بالسعادة التى جعلتها تضحك من الكوابيس التى أفسدت نومها بالأرق والقلق . سمعت صوت رنين جرس ضاعف من سعادتها الغامضة لسبب لا تعرفه . أنصتت جيدا فتأكدت أنه جرس

التليفون وليس جرس الباب . ضحكت ساخرة من التشاؤم الذى سيطر عليها فى أعقاب استيقاظها ، وهرعت عارية خارج الحمام وقطرات الماء تتساقط من جسدها بصابونها المعطر . كان جرس التليفون يرن بعد طول صمت أطبق عليه لمدة تقترب من شهر بأكمله . أسرعت برفع السماعة بيدها المبتلة ، فجاءها صوت سهيلة يبشرها بحدث سعيد طالما انتظرته ، وعندما سألتها عن صدور قرار عودة حسام إلى الجريدة ، رفضت إجابتها إلى أن تحضر بنفسها إلى شقتها لزيارتها ، فلا يصح تبادل أخبار سارة كهذه بالتليفون فى حين أن المسافة بين المنزلين لا تزيد على عشر دقائق سيرا على الأقدام . جرفت النشوة نجلاء فوعدتها دون تفكير بأنها ستكون عندها فى ظرف نصف ساعة .

وضعت نجلاء السماعة وعادت مسرعة إلى الحمام فقامت بتجفيف جسدها ، ثم انطلقت إلى غرفة نومها حيث جلست أمام المرآة لتصلح من زينتها . مشطت شعرها ثم وجدت نفسها دون أن تدرى تدهن شفتيها المكتنزتين باللون الأحمر بعد أن كانت ترفض استخدام أية أصباغ على وجهها . تأملت جسدها العارى أمام المرآة فاكتشفت كم هى مثيرة بنهديها المتطلعتين إلى الأمام فى كبرياء وثقة ، وبساقيها الرشيقتين المتناغمتين مع جسدها الرقيق !! وتعجبت من حسام الذى خاف أن يقربها منذ أن تأكد حملها !!

ارتدت فستانا خفيفا فى لون السماء . وضعت فى قدميها حذاء أبيض وعلى كتفها علقت حقيبة صغيرة من نفس لونه . وقبل أن تغادر الشقة نظرت إلى نفسها فى المرآة فسعدت لمنظرها المشع بالسحر . رفعت سماعة التليفون لتتأكد من وجود الحرارة فوجدتها على أشدها . وضعتها فى سعادة وغادرت الشقة وهى تكاد تقفز على درجات السلم لولا خوفها من تعثر قدمها .

بمجرد خروجها من البيت قابلتها عاصفة ترابية هبت فجأة حتى أوشكت أن تطمس مصابيح الشارع الخافتة ، لكنها لم تعبأ وانحرفت يمينا لتشق شارع قصر اللؤلؤة الضيق الزاخر بالأتربة والأوحال والقمامة . وكثيرا ما ضحكت ساخرة من اسمه الذى لا يمت إليه بصلة حاليا ، على الرغم من قراءاتها الواسعة فى تاريخ القاهرة المملوكية ، والتى أرجعت كل أسماء شوارع وأزقة الفجالة إلى أصول تاريخية وآثار كانت قائمة بالفعل .

سارت بحرص شديد حتى لا تتعثر فى حجر أو حفرة موحلة . كانت خبيرة بتضاريس الشارع فلم تعتمد على مصابيحه الخافتة أو المنطفئة ، حتى سطعت أضواء شارع رمسيس وملأ ضجيجه أذنيها. تذكرت السباق بين حسام وعصام وتعجبت من شطحات العقل الباطن فى دنيا الأحلام . ابتسمت للتفاؤل الذى ملك أحاسيسها منذ أن سمعت جرس التليفون . فلم تعد الحرارة معه فحسب ، بل النبأ السعيد الذى ستعرف تفاصيله بعد دقائق . كانت فى أشد الحاجة لنبأ من هذا النوع بعد أن أصبح عملة نادرة فى الشهور الأخيرة . حتى نبأ حملها فَقَدَ فرحته فى خضم الأحداث الكئيبة التى بلغت قمَّتها بنقل حسام إلى هيئة البريد .

انحرفت يسارا تجاه ميدان رمسيس ثم دخلت عمارة عالية تقطن سهيلة فى الدور الرابع منها . دق قلبها فى عنف عندما وقف بها المصعد وخرجت منه باحثة فى ضوء السلم الخافت عن رقم الشقة ، وجدته بعد أن ضغطت على جرس الشقة المجاورة ، ففتحت لها عجوز شمطاء ، وعندما سألتها عن سهيلة نظرت إليها نظرات غير مريحة ثم أشارت بأصبعها دون أن تفتح فمها بكلمة إلى الشقة المجاورة وأغلقت بابها فورا . ضغطت علىّ الجرس المجاور ففتحت لها سهيلة بشعرها المصبوغ وابتسامتها العريضة . احتضنتها وقبلتها وقادتها عبر الشقة العريقة الأنيقة المكيفة الهواء ، الهادئة برغم ضجيج الشارع والعاصفة الترابية فى

الخارج . دخلت الصالون المذهب الفاخر مع سهيلة ، لكنها كادت أن تصعق عندما وجدت عصام قدرى ينهض مرحبا بها بحماس مذهل لدرجة أنه قبلها فى وجنتيها دون أن تدرى ، ومع ذلك شمت رائحة الخمر المنبعثة من فمه . تباعدت لكنه ظل ممسكا بيدها وهو يميل على حقيبته المفتوحة فوق المقعد الملاصق ، ويأخذ منها ورقة مطبوعة على الاستنسل ويقدمها إلى نجلاء مبتسما بعينين حمراوين :

ـــ ألف مبروك لحسام.. هذا هو قرار عودته إلى الجريدة .. لا تعرفين كم سعيت إلى أن صدر ؟! وانتظرت اليوم بنفسى حتى تم طبعه .. لم أستطع الانتظار ولم يهنأ لى بال حتى قررت أن أبشرك به شخصيا .. وفى الوقت نفسه أتمتع بجمالك الخلاب الذى لم أتمل برؤيته منذ مجيئك إلى مكتبى !!

ـــ بارك الله فيك !

سحبت نجلاء يدها برقة وهى تمسح الورقة بعينيها فى حين تابعت سهيلة المشهد فى وقفتها خلف نجلاء . ضحك عصام ضحكته الأرستقراطية وتساءل :

ـــ هل سنقضى السهرة واقفين ؟!

تنبهت نجلاء إلى كلمة « السهرة » لكنها أخذتها على محمل الدعابة . جلس عصام فى المقعد المجاور لهـا فى حين اختفت سهيلة . تسلل عطرها إلى أنفه ولاحظ بشرتها السمراء فدغدغته النشوة الداخلية . أما هى فلم تجد السبحة فى يده كالعادة . كان يرتدى حلة حريرية بيضاء ، وتحتها قميص أسود مفتوح بلا رباط عنق . أما صبغة شعره فقد زادت قتامتها لدرجة خيل لنجلاء أن ملامح وجهه قد تغيرت ، وخاصة عندما رأتها عن قرب فى ضوء الثريا البللورية ذات الأضواء المبهرة . نظرت نجلاء تجاه الباب المفتوح لترى أين اختفت سهيلة ؟ أشعل عصام غليونه

المعطر ، وخرجت كلماته مع سحابات الدخان :
ـــ ستحضر سهيلة حالا .. لا تتصرفى كضيفة .. فنحن الآن أسرة واحدة .. وإلا لما تحملت كل هذه المشقة من أجل إعادة حسام إلى الصحافة !

كانت نجلاء ممسكة بالقرار فى يدها :
ـــ هل أستطيع أن آخذ القرار ليراه حسام ؟!
مد يده وربت على ركبتها فأبعدتها :
ـــ طبعا .. إنه هديتى له .. فالهدايا بين الأصدقاء عربون الحب !!

ضغط عصام على كلمة « الحب » ، لكن نجلاء تجاهلتها وهى تطبق الورقة وتضعها فى حقيبتها الصغيرة . كان شغلها الشاغل الانسحاب من هذه الجلسة بطريقة دبلوماسية حتى لا يشعر عصام أنها نفضت يديها منه بمجرد حصولها على قرار عودة حسام . ظلت تتأمل التمثال المرمرى الصغير القابع فوق المائدة الصغيرة أمامها ، والذى أثار داخلها رعبا غامضا رأته فى عينى المرأة الجميلة العارية التى تحاول عبثا التخلص من الحية الرقطاء الملتفة حول جسدها المثير ، والتى لم تلتفت إلى التفاحة فى يدها . كأن الحية تريد المرأة . شاركها عصام الاستمتاع بمشاهدة التمثال :
ـــ لا يزال جسد المرأة أكثر الأشكال جمالا وإثارة فى هذه الدنيا !!

نظرت نجلاء فى ساعة يدها الضخمة التى لا تتمشى مع رقتها ورشاقتها . لاحظ عصام قلقها :
ـــ لن تتأخرى كثيرا .. فقد قررنا أن نقيم احتفالا بسيطا بمناسبة التئام شمل العائلة .. فأنا ـــ كما تعلمين ـــ أعيش بلا عائلة .. لكننى أحمد الله .. فأنتم عائلتى الكبيرة التى تملأ دنياى !!
ـــ لن ينسى حسام لسيادتك هذا الجميل !

أسبل عينيه ناظرا إليها فى حنان :

ــ لولاك لما فعلت هذا الجميل ! إنك تستحقين كل خير ! ولا أخفى عليك أننى أحسده فى أعماق قلبى لأنه يتمتع بمثل هذا الجمال الساخن !

كانت مشكلة نجلاء أن شعورها المرهف لم يسمح لها أن تصد أو تعامل بجفاء من أدى لها خدمة مثل هذه . فقد نشأت على قيم شكلت فكرها ووجدانها ، وفى مقدمة هذه القيم كان العرفان بالجميل الذى جعلها تشعر أن مجرد صمتها قد يحمل فى طياته معنى الجحود . لم ينقذها من هذه الدوامة سوى دخول سهيلة ببنطلونها الجينز الذى يكاد يتفجر حول ساقيها ؛ وضعت أمامهما صينية فوقها زجاجة ويسكى وثلاث كؤوس وبعض فواتح الشهية من لحم مجفف وسمك مقدد وجبن . رأت نجلاء الجانب الخفى من شخصية عصام لكنها لم تهتم له بقدر اهتمامها بنصيحة الطبيب لها بالامتناع عن أى مشروبات كحولية لضررها المؤكد على صحة الحامل والجنين . قاومت الحرج والخجل قدر إمكانها ، وسهيلة تملأ الكؤوس الثلاث برغم معرفتها جيدا بحملها . قررت أن تبحث عن عذر سريع تتعلل به ، لكن سهيلة كانت أسبق منها عندما قدَّمت الكأس الأولى لعصام والثانية لها ، فأمسكت بها دون أن تدرى ، وإذا بسهيلة ترفع كأسها :

ــ فى صحة التئام شمل العائلة .. وعودة الابن إلى بيته !..

فى لحظة فرغ كأسا عصام وسهيلة ، وعندما رأتهما نجلاء ينظران إليها فى دهشة ، أفرغت هى الأخرى كأسها ، فجرى السائل داخلها كماء النار . حاولت إخفاء امتعاضها الذى لمحه عصام :

ــ لا أصدق أن هذه أول مرة لك ؟!

أمسكت نجلاء بالخيط :

ـــ فعلا .. أول مرة .. ولم أشربه إلا إكراما لخاطرك !.

ربت على ركبتها مرة أخرى فشعرت أن سيطرتها على الموقف قد خذلتها :

ـــ كنت متأكدًا من معزَّتي عندك .. إن فراستي لا تخيب أبدًا !

نهضت سهيلة وملأت الكؤوس الثلاثة مرة ثانية ، لكن نجلاء كانت قد اكتسبت من الكأس الأولى شجاعة دفعتها إلى القول :

ـــ كفى يا سهيلة .. إنني لا أشرب .. كما أنك تعرفين أنني حامل !!

أجابت سهيلة في استهانة وهي تمد لها يدها بالكأس :

ـــ كأس أخرى لن تفعل شيئا ! لقد شرب عصام بك ما يقرب من ثلث الزجاجة قبل مجيئك .. وها هو يجلس في انتظار المزيد !! إن الأصناف الممتازة لا يمكن أن تضر أحدا .. إلا إذا كنت تعتبرين المتعة والنشوة ضررا لا بد من تجنبه !!

سعد عصام بإجابة سهيلة فأضاف لنجلاء :

ـــ لا أصدق أنك حامل .. فبطنك لا يبدو عليه أي تكور !! إنني لست قليل البخت حتى أجد العظمة في الكرش .. فلا يعقل أن يحدث حمل بعد عشر سنوات من الزواج لمجرد مقابلتك لي !

ضحك عصام ضحكته الأرستقراطية ، لكنها كانت صاخبة هذه المرة وأنبأت عن بدايات سكر بيِّن . ذهلت نجلاء للأسلوب السوقي المكشوف الذي غلَّف نبراته بعد ادِّعاء طويل للأرستقراطية . أعادت الكأس في حزم إلى الصينية :

ـــ متأسفة .. لا أستطيع أن أشرب أكثر من هذا !

نظر عصام إلى سهيلة نظرة ذات مغزى :

ـــ لا تضغطي عليها .. فنحن نريد الاستمتاع بصحبتها أطول مدة ممكنة !

أفرغ كلاهما الكأسين فى حين نظرت سهيلة إلى ساعتها الذهبية فى قلق أحسته نجلاء . ملأت الكأسين مرة ثالثة ورابعة وخامسة ، وبين كل مرة والتى تليها كانت تعاود النظر القلق إلى ساعتها . لكن نجلاء استراحت لنجاحها فى إيقافهما عند حدِّهما . فجأة دوى بوق سيارة بطريقة متكررة ومنغمة . تهللت أسارير سهيلة ونهضت قائلة :

ــ إنه برعى .. سأهبط لأجبره على الصعود وتناول كأسين ! حتى يشاركنا الاحتفال بالمناسبة السعيدة !

خطت نحو الباب فنهضت نجلاء فى أعقابها . اكتشفت أن اتزانها النفسى والجسدى ليس على ما يرام لكنها قاومت :

ــ أرجو السماح لى بالعودة إلى المنزل .. فحسام فى انتظارى .. وأريد أن أبشره بالنبأ السعيد بدلا من أن أتركه قلقا علىَّ !!

نهض عصام وأمسك بيدها ضاغطا عليها بشدة :

ــ لن تتأخرى أكثر من نصف ساعة أخرى !!.

عادت سهيلة وأجلستها على مقعدها :

ــ سأعود حالا كى أصطحبك فى عربتى !

ــ المسافة قصيرة ولا تحتاج إلى ركوب !

ــ إنك حامل ولن أتركك تسيرين بمفردك !

تكرر البوق المتكرر المنغم ، فهرعت سهيلة إلى باب الشقة :

ــ سأعود حالا !!

فتحت باب الشقة لكن الخوف سرى داخل نجلاء عندما أغلقته خلفها ، لكنها طمأنت نفسها ، فبعد لحظات ستكون معها سهيلة وبرعى . عندئذ سيكون فى إمكانها الاستئذان من جلسة لا تناسبها وخاصة فى غياب زوجها . صب عصام لنفسه كأسا أخرى وتجرعها ناظرا إليها نظرات غير مريحة . تفادتها بتركيز عينيها على التمثال المرمرى

الصغير :

ــ إننى أحسد هذه الحية التى تحيط بهذا الجسد المتفجر !

نظرت نجلاء إلى ساعتها بحركة لا إرادية فوجدتها تقترب من التاسعة والنصف . تذكرت عودة حسام من بيت صديقه فى ساعة متأخرة فتعادلت الطمأنينة مع الخوف داخلها :

ــ لقد تأخرت سهيلة !!

ــ لا بد أن برعى يرفض الصعود !

ــ هل يعلم بوجودى هنا ؟!

ــ لا أعتقد .. فمجيئك كان من قبيل الصدفة البحتة !! فأنا نفسى لم أكن أتوقع الحصول على نسخة من القرار اليوم !!

عاودت النظر إلى ساعتها :

ــ سيقلق حسام علىَّ !!

ابتسم ابتسامة ذكَّرتها بأنياب الحيَّة المحيطة بجسد المرأة :

ــ إننى أعرف أنه يقضى سهراته مع صديقه الذى يعمل فى مصلحة أو هيئة البريد حتى ساعة متأخرة من الليل !

ندمت نجلاء على أنها قصَّت على سهيلة تفاصيل حياتها الخاصة ، فقد نقلتها بدورها إلى عصام ، ولم تنس شيئا منها سوى أنها حامل . بدأت فى الإحساس بخيوط الشبكة التى وقعت فيها دون أن تدرى ، وهى تلتف حول جسدها كالحية ، خاصة وأن سهيلة لم تعد . نهضت دون تفكير :

ــ لا أستطيع أن أبقى بعد الآن .. اعذرنى يا عصام بك .. فأنا لم أتعود الخروج دون إذن زوجى !..

أصبحت لهجة عصام مخيفة :

ــ إنك لست طفلة لتستجدى مثل هذا الإذن ! فأنت امرأة ناضجة تعرفين موقع خطواتك جيدا !!

أحال الخوف صوتها إلى رجاء :

— إنه لا يعرف أين أنا ؟!

— إنك فى زيارة لزميلة وجارة لك ؟! ولست فى وكر العصابة التى اختطفتك للابتزاز أو الاغتصاب !!

ابتسم عصام ساخرًا ، لكن قشعريرة الرعب جعلت كل مسام بشرتها تنبض بشحنات من الكهرباء والعرق . قاومت إحساسا أوحى إليها بالوهن . صحيح أن قدرتها على المقاومة ليست كالمعتاد ، نفسيا وجسديا ، لكنها لا تزال نجلاء الصلبة الصامدة . فوجئت بيده تتسلل تحت فستانها وتمسك بركبتها ، فتأكدت أن السكر قد أفقده عقله . أمسكت بيده وألقتها بعيدا ، نهض واقفا أمامها فوجدت نفسها سجينة مقعدها :

— إياك أن تظنى أن فى نفسك القدرة على خداعى والتلاعب بى !! إننى رجل شريف وعند كلمتى دائما .. وأحب فى أى اتفاق معى أن يقوم الطرف الآخر بالوفاء بالتزاماته .. كما سبقته أنا إلى ذلك !

تأرجح المقعد بنجلاء لكنها قاومت الإعياء الذى داهمها :

— لم يتم بيننا اتفاق .. كان كل ما هناك وعد من سيادتك لإعادة حسام إلى عمله بالجريدة .. وأنا مدينة لسيادتك بهذا الجميل !!

— هل ظننت أننى أضعت أسبوعا كاملا من وقتى الثمين المشحون بالمسئوليات الخطيرة والأعباء الجسام حبًّا فى سواد عينى زوجك المصون ؟!

— لم أقترح شيئا على سيادتك .. فقد كنت البادىء باستدعائى وإظهار حماسك بإعادة حسام !!

— لكننى وجدت منك حماسا أشد ؟!

— لم يكن من المعقول أن أتظاهر باللامبالاة فى وجه من تطوع

بمساعدة زوجي في محنته !!

ــ لا بد أن تعلمي أن كل محاولاتك للتخابث مكشوفة .. فلا يوجد في زمننا هذا شيء اسمه التطوع .. فالعالم كله يسير على مبدأ خذ وهات !!

ــ سنخدم في الجريدة .. أنا وحسام .. ليل نهار .. وسنكون رهن إشارتك حتى لو طلبت منا مسح البلاط !!

ــ أنا لا تهمني الجريدة .. فلتذهب إلى الجحيم بكل من فيها !!

ــ لا أعرف ماذا تريد سيادتك بالضبط ؟!

ــ أنت تعرفين جيدا أنني أريدك أنت !!

نهضت نجلاء دون رد أو تفكير ، لكنها وجدت جسدها يلتصق بجسده في وقفته المنتصبة أمام المقعد . احتواها بين ذراعيه وأطبق بشفتيه على عنقها ، لكنها قاومته بكل قوتها ، فألقاها مرة أخرى على المقعد ، وانحنى واضعا ذراعيه على مسنديه . استحالت مقاومتها إلى رجاء ملح :

ــ أرجوك .. إنني حامل !!

ــ كاذبة !! وحتى لو كنت كذلك .. فإن هذا من شأنه أن يجعل الموضوع أكثر إثارة !!

ــ إنني لست مثل الأخريات اللاتي عرفتهن !!

ــ كاذبة أيضا .. كفاكن ادعاءً للشرف .. فأنتن من طينة واحدة .. عاهدتني شارون على الإخلاص والوفاء ثم سلَّمت نفسها لعامل مطبعة لا يساوي شيئا في سوق الرجال .. وقاومتني نورا طويلا ثم سلَّمت نفسها لي بمحض اختيارها وإن كانت ادَّعت بعض المقاومة .. فإذا كان لا بد من المقاومة فسأنتظر حتى تفرغي من مسرحيتك أنت أيضا !!

ــ لو علم حسام بهذا فلن يسكت ؟! فأنت تعرفه جيدا !!

ــ وأنت تعرفين جيدا أنه لا يعلم شيئا !! فكل شيء محسوب حسابه

مقدما !

ـــ لا تكن واثقا من نفسك إلى هذا الحد ؟!

ـــ لن نضيع وقتنا فى لغو الكلام !!

أمسك بذراعها بيد من حديد وقادها ، برغم مقاومتها المستميتة ، إلى غرفة النوم . قاومت ، استعطفت ، بكت ، أوشكت على تقبيل حذائه ، لكن الكهل المتصابى استحال إلى شاب فى العشرين عندما ألقى بها على الفراش .. صرخت لكنه كتم أنفاسها بيده ، عضَّته بأسنان حديدية فصفعها صفعة جعلت المرئيات تهتز برعشة الكهرباء فى عينيها ، ثم غاصت فى عالم لا تدرى عنه شيئا . أطياف وأصوات وألوان باهتة وغثيان وتقلصات سرعان ما تترك مكانها لخمود فى الأطراف . خنجر يغرس فى جسدها وتتفجر نافورة من الدماءالساخنة الكثيفة . جبال تميد وتميل على ثدييها وبطنها حتى تكاد أن تزهق روحها . غطى اللون الأبيض كل الأشياء فأحسَّت أنها أصيبت بالعمى . رأت حساما يسير بعكَّاز فى يديه وقد تلاشى اللون الأسود فى عينيه . استحال عصام إلى أفعى ، يقطر ناباها سمًّا أصفر . خاضت بساقين عاريتين مستنقعات من الوحل اللزج . نظرت إلى نفسها فى مرآة ضخمة فإذا بها عارية كما ولدتها أمها والمرآة مهشمة . زحفت جحافل النمل مخترقة أذنيها وعينيها وأنفها كى تتجمع وتعسكر فى خلايا مخها .

عادت إلى العتبات الأولى لوعيها . فتحت عينيها محاولة تذكَر أين هى ؟! وماذا كانت تفعل ؟! استحال رأسها إلى كتلة صمَّاء من الرصاص . شعرت بمستنقعات العرق تبلل شعرها وكتفيها وظهرها الذى استلقت عليه . الثريا المعتمة المدلاة من سقف الغرفة لا تشبه تلك التى اعتادت تأملها فى غرفة نومها . أين حسام ؟!! كم الساعة الآن ؟! نظرت إلى ساعتها فلم تتبين عقاربها جيدا فى ضوء الأباجورة الأحمر الخافت . ما

هذا الألم الحاد الذى يمتد من بين فخذيها ويصعد كماء النار حتى أعلى البطن ؟! هل ترزح تحت وطأة كابوس تتمنى أن تستيقظ منه أو أنها مستيقظة بالفعل ؟!

انتصبت جالسة . وجدت ملابسها الداخلية ممزقة ، ودماء لزجة تكاد تتجمد بين ساقيها . فى ومضة خاطفة تذكرت كل شىء . صرخت صرخة ظنَّت أنها ستهز الجدران . لكنها خرجت مكتومة ذبيحة ! انهارت باكية لكن الدموع لم تسعفها .. توسلت إلى إرادتها كى تعينها على تحمل الألم والسير على الأقدام حتى البيت . لكن أين ذهب ؟! هل تركها بهذه البساطة وغادر الشقة ؟! تحاملت على نفسها ونهضت تبحث عنه فى كل غرف الشقة فلم تجد له أثرا . ذاب كما ذابت سهيلةمن قبل . بحثت عن دورة المياه . غسلت ساقيها قدر طاقتها . لم تعرف ما حدث لها بالضبط ، فقد شلَّت ملايين الأسئلة المهاجمة عقلها المنهك ! حاولت تمشيط شعرها بأظافرها . فى مرآة دورة المياه رأت بصمات أصابعه الخمسة على خدها الأيمن ، أما الأيسر فكانت به بعض الخدوش والسحجات .

لم تعرف ماذا تفعل ؟ كانت تتحرك دون تفكير ! ذهبت إلى الصالون حيث وجدت حقيبتها الصغيرة ملقاة حيث تركتها ، وضعتها فى كتفها . انتابتها رعشة عندما وجدت ساعة يدها وقد تجاوزت الثانية عشرة . كانت عاجزة تماما عن التفكير الذى لم يعد ذا فائدة فعلية . فمهما فكَّرت وانفعلت وأعملت الفكر فإن ما جرى لها وما سيجرى لا علاقة له بالدنيا التى عاشتها وعرفتها وخبرتها ! وليس عليها سوى أن تتقبل ما تأتى به اللحظات القادمة . كانت هذه البلادة التى حطَّت على عقلها بمثابة صمام الأمن الذى جنَّبه الانفجار .

غادرت الشقة وتوكأت على السلم بعد أن توقف المصعد عن العمل .

كانت حركة المرور قد هدأت فى الشارع لكن العاصفة الترابية أحاطت المصابيح الصفراء بهالات من الذرات المعلّقة دون حركة واضحة برغم العاصفة الهوجاء المتدفقة فى عنف كأنها تصر على دفن القاهرة تحت طيَّاتها المتتابعة .

ـ ١٣ ـ

ــ قلبى يؤكد لى أن هذه الليلة لن تمر على خير !!

ــ اهدأ بالله عليك يا بنى !! أين إيمانك بالله !! لا تترك الأفكار السوداء تنهشك بهذا الشكل !! ستعود حالا بسلامة الله !! ربما ذهبت لزيارة إحدى جاراتها أو صديقاتها لسأمها من الانتظار بمفردها فى البيت !!

ــ لم يكن لديها وقت لمثل هذه الزيارات من قبل ! وحتى إذا قامت بواحدة منها فإنها لا يمكن أن تتأخر إلى ما بعد منتصف الليل ! إذا لم تأت فى ظرف عشر دقائق سأبحث عنها فى الشوارع المحيطة .. وإذا لم أجدها سأبلغ الشرطة !

وضعت السيدة المسنة يدها على خدها عندما لم تجد كلمات تهدىء بها هجمات القلق على وجدان زوج ابنتها . فقد كانت هى الأخرى فى أشد الحاجة إلى من يطفىء النار المشتعلة داخلها . كان حسام قد عاد إلى البيت فى تمام الحادية عشرة ، وعندما لم يجد نجلاء ظن أنها ذهبت لزيارة أمها . ذهب للعودة بها لكنه ذهل عندما قابلته الأم بوجه جزع لأنها لم ترها طوال اليوم . كانت الأم تعيش بمفردها بعد رحيل الزوج وزواج الأبناء ، لكن قرب نجلاء منها لم يشعرها بالوحدة ، خاصة وأن حساما كان أكثر من ابن لها . ارتدت ملابسها بسرعة وهبطت معه

لتهدىء مخاوفه برغم أنه انتزع طمأنينتها التى ذهبت بها إلى الفراش . عادا إلى الشقة ولا أثر لها . ظل حسام يذرع الصالة جيئة وذهابا كالأسد فى قفصه . ثم فتح الباب لتنفيذ ما عقد العزم عليه . وفى اللحظة التى أنار فيها مصباح السلم وجدها تصارع الإعياء من أجل الوصول إلى الباب . ذهل لمنظرها وهرع لمساعدتها ولسانه يلهج بالتساؤل المحموم :

ــ ماذا حدث ؟! أين كنت ؟! هل وقع لك مكروه ؟! هل اعتدى عليك أحد ؟! تكلمى ! أرجوك !

نظرت إليه وهو يمسك بيدها ويدخلها الشقة لترى أمها زائغة العينين لا تدرى ماذا تقول أو تفعل وهى تحيطها بأحضانها عندما أجلسها فوق أقرب مقعد . إنهال عليها بالأسئلة اللاهثة مرة أخرى ، لكن الكلمات ضاعت منها ثم الأفكار ثم الأحاسيس . طلبت منه الأم فتح حقيبتها وإخراج زجاجة الكولونيا التى تستخدمها . نفذ حسام الأمر دون تفكير . أخرج الزجاجة وناولها للأم التى فتحتها تحت أنف ابنتها مع تدليك وجهها باليد الأخرى . فوجىء حسام داخل الحقيبة بورقة مطبقة . فتحها لعلها تكشف عما عجزت نجلاء الإفصاح عنه . جرت عيناه على السطور التى لم يستوعبها فى المرة الأولى ، لكنه فى المرة الثانية رأى بينها صورة عصام قدرى . وضع الورقة فى جيبه وعاد يهز زوجته فى عنف :

ــ أين كنت ؟! هل اعتدى عليك أحد ؟!

فتحت نجلاء عينيها بصعوبة :

ــ أرجوك يا حسام .. لقد وقع لى حادث يبدو أنه أجهضنى !

أغلقت عينيها فى إعياء شديد فهرع إلى التليفون ليطلب طبيبها المعالج فى منزله . شرح له الموقف فى كلمات لاهثة متقطعة ، فطلب منه أن يصطحبها فى عربته إلى مستشفاه الخاص فى مدينة نصر ، وسيكون هناك بعد نصف ساعة . وضع حسام السماعة وحب الاستطلاع

يكاد يقتله ، لكن الوقت لم يكن يسمح به . طلب من الأم مساعدته فى النزول بنجلاء إلى العربة . رضخت الأم وأمسكت بيد ابنتها فى حين أحاط حسام وسطها بذراعه . أغلق الباب خلفه وهبط ثلاثتهم حيث كانت العربة البيضاء الصغيرة تقبع أمام الباب . أجلس زوجته فى المقعد الخلفى وإلى جوارها أمها التى احتضنتها تماما . أدار محرك العربة وانطلق بها عبر شارع قصر اللؤلؤة ثم اتجه يمينا منطلقا فى شارع رمسيس بعد أن أغلق زجاج النافذة برغم حرارة الجو الخانقة . فقد تزايدت العاصفة الترابية لدرجة أشعرته بالاختناق ، كما جعلت الرؤية شبه منعدمة لولا ضوء المصابيح الصفراء المبهرة .

كانت حركة المرور قد خفت إلى حد بعيد مما مكن حسام من الانطلاق إلى المستشفى الذى زاره من قبل مع نجلاء لمتابعة سير الحمل . شعر بخنجر يغمد قلبه عندما استعاد كلمة الاجهاض التى نطقت بها نجلاء . لكن الوقت لم يسمح له بالتفكير . إنه الآن فى مهمة انقاذ لا بد أن تتم ، وبعد ذلك يمكنه التفكير والتخطيط والتنفيذ .

عبر ميدان العباسية فتذكر سهرته مع أحمد عامر منذ ساعات . هل جرى ما جرى فى أثنائها؟! ليس هذا وقت التفكير مرة أخرى ! انحرف يسارا عبر طريق صلاح سالم الذى تحسس فيه ملامحه التى أوشكت العاصفة أن تطمسها . كان كل تركيزه فى القيادة حتى لا يقع أسوأ مما وقع ! لكن هل يمكن أن يقع أسوأ مما وقع ؟! ليس هذا وقت التفكير مرة ثالثة ! انحرف يمينا بين مبانى مدينة نصر الضخمة ثم يمينا مرة أخرى إلى أن وقف أمام فيللا صغيرة من دورين ، علقت على مدخلها لافتة واضحة كبيرة : مستشفى الدكتور أحمد سليم للتوليد وأمراض النساء . قفز حسام خارجا وأمسك بيد نجلاء التى ساعدتها أمها على الخروج وهى تتساءل فى مرارة :

ــ ألم يكن فى مقدور الطبيب إرسال عربة إسعاف ؟!

ــ لم يكن الوقت يسمح بهذا ! فربما تأخرت هذه العربة حتى الصباح !

سار ثلاثتهم إلى قسم الاستقبال ، فهرعت إليهم ممرضة جميلة رشيقة ساعدتهم فى الإمساك بنجلاء وإدخالها غرفة الكشف . حاولت إدخال الطمأنينة فى قلبيهما :

ــ سيأتى الدكتور حالا .. اتصل بنا وأمر بإعداد غرفة الكشف والعمليات !!

تساءل حسام بقلب واجف :

ــ هل سيجرى لها عملية ؟!

أجابت الممرضة فى اقتضاب :

ــ لا أعلم ..فمهمتناتنحصر فى تنفيذ الأوامر فقط !!

ساعدت الممرضة نجلاء لترقد على ظهرها فوق مائدة الكشف . لم تكن نجلاء فى حالة إغماء ، لكنها كانت تمر بحالة إعياء أسوأ وأقسى ، ولولا هذا الإعياء لصرخت من آلام الرحم والبطن . انهمكت الممرضة فى إعداد بعض الأجهزة فى حين خرج حسام إلى الصالة التى ذرعها جيئة وذهابا وهو ينظر إلى ساعته التى تجاوزت الواحدة صباحا . سمع صوت محرك عربة تقف بالخارج . هرع إلى الباب فرأى الطبيب يغلق بابها ويحييه مبتسما مطمئنا .

دخل فورا إلى غرفة الكشف فى حين أسرعت الأم لتلحق بزوج ابنتها فى الصالة . مضت الثوانى كالجبال الرواسى . وبعد ربع ساعة خرج الطبيب لينتحى بحسام جانبا فى حين التصقت الأم بالكلمات الخارجة من فمه :

ــ لقد وقع لها حادث إجهاض بالفعل .. ولا بد من إجراء عملية تنظيف عاجلة لها منعا لأية مضاعفات !!

نظر حسام نظرة كسيرة للطبيب :

ـــ تفضل بعمل ما تراه مناسبا يا دكتور !!

ربت الطبيب على كتفه فتساءل فى هلع :

ـــ هل حياتها فى خطر يا دكتور ؟!

ربت على كتفه مرة أخرى وهو يدخل غرفة العمليات :

ـــ كل شيء سيكون على ما يرام بإذن الله ..

اختفى الطبيب . جلست الأم على مقعد قريب من الباب ووضعت وجهها بين يديها . استأنف حسام حركته المتوترة وخطواته المرتعشة بين بداية الصالة ونهايتها . لم يستطع أن يطرد صورة عصام قدرى من مخيلته . هل يمكن أن يكون قد غرَّر بنجلاء فى مقابل الحصول على قرار عودته الذى لم يكن سينفذه أصلا ؟! إذ لا يعقل أن يعود بمفرده فى حين يقبع الشيخ الوقور عبد الحليم رضا والعامل المكافح منسى فى السجن ؟! لقد أراد عصام قدرى أن يضرب عصفورين بحجر بهذا القرار : انتهاك كرامة زوجته وكرامته التى يفخر بها دائما ، وتشويه صورته بإظهاره أمام زملائه وأصدقائه وأحبائه بمظهر الجاسوس الذى دخل وسطهم وعرف أسرارهم ثم وشى بهم . صحيح أنه طُرد معهم لكن هذا على سبيل التغطية فقط ، بدليل أنه عاد بأسرع ما يمكن إلى الصحافة وبمفرده !

أحس حسام بصفاء ذهن نادر ، جرف أمامه التشتت والضياع والاهتزاز والإحباط . كان كمن اكتشف فجأة معنى حياته !! سار بخطوات أكثر ثقة وثباتا ، والأم تلاحظ خطواته من طرف خفى ! إن أهم شيء هو سلامة نجلاء ، فلا ذنب لها فى كل ما حدث ! لقد ظنت أنه فى إمكانها مساعدته على الخروج من أزمته بإعادته إلى الصحافة ! لكن براءتها لم تكن لتقف أمام الحية الرقطاء بسمها الزعاف !!

فتح الطبيب باب الغرفة ونظر منه وهو يتخلص من قفازه الأبيض

اللامع . أسرع إليه حسام فقال له :

ـــ الحمد لله .. كل شىء على ما يرام .. ستبقى اليوم بطوله تحت رعايتى .. ويمكنك اصطحابها إلى البيت فى آخر النهار .. لكن لا تحاول إجهادها بالكلام أو الثرثرة .. إنها فى أشد الحاجة إلى الراحة .. على الأقل فى العشر الساعات القادمة !

لم يجد حسام ما يقوله سوى :

ـــ أمرك يا دكتور !!

دفعت الممرضة النقالة التى تنام نجلاء عليها عبر الصالة ثم دخلت بها إحدى الغرف الخالية ذات السريرين . أسرع حسام لمساعدتها فى نقل نجلاء إلى السرير ثم قام بتغطيتها . قادت الممرضة النقالة إلى خارج الغرفة فى حين جلست الأم على السرير المقابل ، وحسام على مقعد ملتصق بسرير نجلاء وقد أمسك بيدها . كانت الأم تنظر من حين لآخر إلى سقف الغرفة كأنها فى صلاة صامتة ، كانت ساعة حسام تشير إلى الثانية صباحا ، ولم تزل نجلاء تحت تأثير المخدر . لكنها بعد نصف ساعة بدأت تتململ وتتوجع . أمسك حسام بيدها وخصرها بحنان بالغ حتى لا تتحرك كثيرا ، لكن ملامح وجهها تقلصت كأنها رأت شبحا ثم خرجت بعض الكلمات متقطعة ، متناثرة : يا مجرم !! يا سفاح !! سيعرف حسام كيف ينتقم لى !! لن تمر جريمتك بلا عقاب !! عرفت كيف تستغل رغبتى لمساعدة زوجى ؟! سأقتلك أنا بنفسى !! سأقتلك !! سأقتلك !!

كانت الأم جالسة على السرير المقابل فى شبه إغفاءة ، ففزعت على صراخ ابنتها المتشنج وهى تلوح بيديها فى الهواء . لكن حساما أعاد ذراعيها تحت الغطاء وربت عليها قائلا لأمها :

ـــ إنها هلوسة التخدير !

ـــ ما معنى هذا الكلام ؟!

ـــ طالما أنه هلوسة فلا معنى له !

صمتت الأم عندما هدأت ابنتها مرة أخرى وغاصت فى إغفاءة طويلة لم تستيقظ منها إلا فى الساعة الرابعة والنصف صباحا . فتحت عينيهـا فوجدت وجه حسام يطل عليها وهو يمسك بيدها ويربت على وجنتها مبتسما . أحست برغبة عارمة لتقبيل يده لكنه لم يسمح لها بأن ترفع رأسها ، انتقلت الأم للجلوس عند قدميها . دارت نجلاء بعينيهـا فى الغرفة :

ـــ هل أجرى لى الدكتور العملية ؟!

أجاب حسام ممسكا الدموع فى عينيه :

ـــ لا تتكلمى كثيرا .. حتى لا تجهدى نفسك !!

ـــ لن أقول غير كلمة واحدة !!

ـــ تحت أمرك يا روحى !!

ـــ لا تتركنى حتى تخرج معى من المستشفى !

دهشت الأم لهذا الطلب :

ـــ لقد سهر الليل كله إلى جوارك .. كما أن الطبيب أكّد أن الحالة مطمئنة تماما .. بدليل أنك ستخرجين معنا اليوم فى آخر النهار .. اتركيه يذهب لبعض النوم أو الاسترخاء ؟! وسأظل أنا إلى جوارك .. وإذا شعرت بالتعب فالسرير موجود .!!

هبط الإحباط على نجلاء ، بل تحوَّل إلى ضيق عندما وجدت ملامح حسام تنطق بالموافقة على كل كلمة قالتها الأم ، لكنها لم تستسلم برغم دمعة كبيرة على حافة عينها اليمنى :

ـــ أخاف عليه من القيادة فى العاصفة الترابية العاتية فى الخارج !

كان زئير العاصفة قد خفت قليلا ، فلم تسكت الأم :

ــ أن يقود الآن .. أفضل وأسلم من أن يعود بنا آخر النهار إلى البيت دون نوم !!

نظرت نجلاء إليى أمها فى استسلام كامل صامت ، فقالت لحسام :

ــ قم يا بنى الآن واذهب لبعض النوم والاسترخاء .. وعندما تشعر بالراحة عد إلينا بسلامة الله !!

تقلَّصت يد نجلاء على يده ، وومض فى عينيها رجاء ملح بألا يتركها ، لكنه ربت على يدها ثم سحب يده منها برقة وحنان :

ــ سأعود بعد ساعتين على أكثر تقدير .. على الأقل لأحضر لك ملابس أخرى لارتدائها عند الخروج !!

تفادى الرجاء الملح فى عينيها ، واستأذن من الأم ثم اختفى فى لحظات . كانت العاصفة قد هدأت فى الخارج ، لكن ترابها كان لا يزال معلَّقا فى الجو ، مما صبغ الكون بصفرة رمادية . طرد حسام صورة نجلاء من ذهنه وهو يدير محرِّك العربة وينطلق بها فى طريق صلاح سالم عائدا إلى بيته . كان الفجر يقاوم بنوره عتامة التراب ، فى حين كانت الشوارع شبه خالية إلا من بعض عربات يبدو أنها كانت منطلقة إلى المطار أو قادمة منه .

وجد نفسه فى المنزل بعد عشر دقائق من مغادرته المستشفى . استلقى بحلته الصيفية الرمادية على الفراش لكن نجلاء منعته من النوم ، كانت أمنية عمره أن يعود فى مثل هذه الساعة من الفجر بعد ميلاد ابنه الذى قتله الشوق إليه ، لكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه . نهض إلى غرفة المكتبة وأضاء النور ، نظر بحنين بالغ إلى الكتب التى تتربع على الرفوف التى تغطى الجدران . تصفح كعوبها المذهبة باسم أبيه الذى كان يود أن يصبح مؤرخا عسكريا عندما يتقاعد عن الخدمة العسكرية ، لكن القدر قطف زهرة شبابه وهو يدافع عن الوطن . كان يرى فى اشتراكه فى

صد العدوان على بور سعيد نوعا من الثأر الشخصى برغم أنه كان من مواليد قرية فى بطن الجبل عند أعالى الصعيد ، وكانت تلك أول مرة يذهب فيها إلى بور سعيد . لكن مصر كانت كلها وطنه . لقد ترك أبوه فيه بصمات لا تمحى برغم أنه كان فى مطالع المراهقة عندما رحل . مال بشفتيه مقبِّلا اسم أبيه المذهَّب على كعب أحد المراجع . تدحرجت دمعة كبيرة على خده الأيسر سرعان ما مسحها بيده ، جلس إلى مكتبه أو مكتب أبيه . فتح أحد أدراجه وظل يتأمل ما بداخله دقائق متواصلة دون أن يشتت انتباهه شيء آخر ، تركه مفتوحا وذهب إلى دورة المياه .

أمام مرآة الحمام وجد منابت الشعر تكاد تغطى ذقنه بلون أخضر مائل إلى السواد ، وطبقة خفيفة من التراب تغلف رأسه ووجهه وعنقه . شرع فورا فى الحلاقة وهو يطلق صفيرا جزلا جعله يبتسم لنفسه فى المرآة عندما ظن أن أى إنسان يراه فى هذه الحال لا بد أن يشك فى قواه العقلية نتيجة لصدمة الليلة الماضية ، لكن هذا الإنسان لن يدرك أنه فى كامل قواه العقلية والذهنية والفكرية والعاطفية ، وأنه لم يسبق له أن تمتع بمثل هذا الصفاء الذهنى من قبل . فطالما تمنَّى اليوم الذى يمكنه فيه من ممارسة الصحافة كرسالة للأجيال المقبلة ، وها قد أتى اليوم .

انتهى من الحلاقة تماما مستمتعا بنعومة ذقنه . كان البانيو لا يزال ممتلئا منذ الليلة الماضية بعد أن نسيت نجلاء أن تفرغه . أفرغه ونظفه بهمَّة لا تعرف الكلل ، ثم ملأه ماءً دافئا من السخان ، غرق فيه حتى أذنيه بمجرد أن تخلص من ملابسه كلها . ليس المهم أن يعرف الإنسان رسالته فى الحياة ، فالأهم من هذا أن يعرف كيف يخرجها إلى حيز التنفيذ !! استمتع بملمس المياه الدافئة التى أزاحت كل آثار الصابون المعطر الذى غطى به جسمه ورأسه . نهض واقفا وجفَّف جسمه . ارتدى ملابسه الداخلية وهرع إلى غرفة نومه . فتح الدولاب باحثا عن أجمل حلَّة

له تليق بالمناسبة . لم يجد أجمل من حلة زفافه الذى تم منذ عشر سنوات . إن طرازها القديم أصبح من أحدث صيحات الأناقة الآن ، وإن كان صوفها لا يناسب جو سبتمبر .

أخرجها وجرى بالفرشاة عليها . فقد كانت المرة الثانية لارتدائها بعد ليلة العمر . لبس قميصا أبيض ، أحاط ياقته برباط عنق أحمر ، ثم ارتدى الحلّة . تعطّر بماء كولونيا لم يستخدمه منذ سنوات . نظر إلى نفسه فى مرآة الدولاب فرأى عريسا فى غاية الأناقة والرشاقة ، بل رأى نجلاء فى ثوب زفافها متعلّقة فى ذراعه . نفض صورتها بيده وهرع إلى الحمام حيث ألقى حلّته الرمادية الخفيفة وأخرج منها ورقة وضعها فى جيبه مربتًا عليها . رأى وجهه فى مرآة الحمام فأعاد تمشيط شعره بعناية فائقة ، ثم انطلق إلى غرفة مكتبه حيث كان المنبِّه قد تجاوز السابعة . جلس إلى مكتبه ، وعاد يتأمّل الدُّرج الذى تركه مفتوحا . مد يده وظل يتلاعب بما فى داخله وهو ينظر بحنان وشوق وإجلال إلى صورة أبيه المعلّقة وسط الكتب وهو فى زى اليوزباشى . لقد اكتشف حسام لأول مرة فى حياته ، برغم أن عينيه وقعتا على هذه الصورة آلاف المرات من قبل ، أنه لو ارتدى الزى العسكرى نفسه فسيكون صورة طبق الأصل من أبيه .

— ١٤ —

دهشت السكرتيرة عندما وجدت عصام بك يصل إلى مكتبه مبكرا على غير عادته ، فقد كانت الساعة قد تجاوزت التاسعة بخمس دقائق عندما دخل ومعه حارسه الخاص المسلح الذى اعتاد فى الفترة الأخيرة أن يقضى معظم وقته مع موظفى الاستعلامات عند المدخل . ولم يكن الحارس نفسه يتصرف كما لو كان هناك ثمة خطر يهدّد حياة عصام قدرى الذى ألقى بتحية الصباح على سكرتيرته قائلا :

— إذا جاء حسام السيد .. وأبلغك المدخل بوصوله .. أخبريني فورًا !!

— يبدو أن سيادتك نسيت أنه أُبعد إلى هيئة البريد ؟!

أجاب عصام بسأم وقلق وهو يخطو تجاه غرفته :

— نفذي ما قلته لك !

— تحت أمرك يا فندم !

ثم نظر إلى حارسه :

— وأنت لا تترك المكتب إلا عندما أخبرك !

— تحت أمرك يا فندم !

فتح المكتب ودخل . جلس الحارس صامتا إلى جوار السكرتيرة التي لم تخف ملامحها طلائع حب الاستطلاع . سألت :

— ماذا حدث ؟!

— علمي علمك .. بمجرد أن استلمت نوبة الحراسة أمام العمارة .. هبط الطباخ الذي يلازمه دائما وطلب مني الصعود لمقابلته فورا — وعندما نفذت الأوامر — قال لي إن سلطات الأمن أبلغته بأن حياته في خطر .. فقلت له إذا كان الأمر هكذا فلا بد من حراسة إضافية .. لكنه تردد وقال إن الأمر ليس بهذه الخطورة .. فكل ما يطلبه مني أن أكون أكثر يقظة .. ثم فوجئت بنزوله في الثامنة والنصف .. كان يتلفت حوله بطريقة غريبة .. لكنني لم أسأله لأنني آخذ الأمور ببساطة !!

ابتسمت السكرتيرة في سخرية :

— إنك تأخذ الأمور ببساطة أكثر من اللازم ! أتعتقد أنك مجرد حرس شرف له ؟!

لم ينظر إليها لكنه قال :

— طلبت منه أكثر من مرة أن يسعى لرفع مرتبي .. لكنه لم يهتم

بى ..فى حين أننى أعرض حياتى للخطر من أجله !! ألا تستحق حياتى علاوة أو بدل خطر ؟! لقد عمل زميل لى فى أحد بنوك الانفتاح .. وهو الآن يحصل على مرتب سبعة أضعاف مرتبى .. وكل ما يفعله هو التواجد فى البنك من السابعة مساء حتى السابعة صباحا .. أما أنا فأنتقل مع عصام بك فى كل مكان يذهب إليه وعيناى على كل من يقترب منه .. هذا طبعا باستثناء الزيارات الخاصة التى لا يحب أن يعرف عنها أحد أى شىء !! وإذا وقع لى حادث فلن يجد أولادى الخمسة الصغار ما يأكلونه !!

سألته السكرتيرة مبتسمة :

ـــ هل تناولت إفطارك ؟!

دق جرس التليفون فرفعت السماعة :

ـــ آلو .. أهلا .. صباح الخير .. وصل .. يريد مقابلته الآن .. لحظة واحدة ..

رفعت السماعة الأخرى :

ـــ حسام السيد وصل يا فندم ويريد مقابلة سيادتك .. نعم . وهو كذلك .. تحت أمرك يا فندم !!

وضعت السماعة قائلة فى الأخرى :

ـــ سينزل عبده لاصطحابه !!

وضعت السماعة الأخرى قائلة للحارس :

ـــ وحياتك يا عبده .. انزل وأحضر حسام السيد من المدخل !!

ابتسم دون أن يحاول أن يكتم سخريته :

ـــ أرجو ألا تكون كل هذه الاحتياطات من أجل هذا المغلوب على أمره ؟!

أسرع خارجا لتنفيذ الأوامر . فتحت السكرتيرة لفّة كانت أمامها وأخرجت ساندويتش فول التهمت نصفه تقريبا قبل دخول عبده مع حسام

السيد الذى أذهلها بأناقته غير المعهودة . حياها برقّة وابتسامة فى منتهى العذوبة . ردت عليها :

— تفضل .. لحظة واحدة !!

دخلت مكتب عصام الذى كان يدخن بشراهة ويلعب بحبات سبحته فى عصبية ، قبل أن تفتح فمها بكلمة سألها :

— كيف يبدو ؟!

دهشت للسؤال المفاجىء لكنها أجابت مبتسمة :

— كعريس يوم زفافه ! والسعادة تتراقص على وجهه !!

انداحت موجة التوتر داخله فاسترخى فى مقعده الوثير :

— دعيه يدخل ومعه عبده !!

— تحت أمرك يا فندم !!

خرجت السكرتيرة فى حين أسرع عصام لإشعال عود بخور هندى فوق مكتبه مقنعًا نفسه بأن مخاوفه لم يكن لها أساس من الصحة .. تصاعد دخان البخور مع دقات رقيقة على الباب فقال :

— تفضل ..

فتح الباب ودخل حسام وخلفه عبده . نهض مرحبا به مذهولا لأناقته ، والعطر المشع منه ، والابتسامة التى أضاءت وجهه . مد حسام يده بالسلام ومعها انحناءة رقيقة . شد عصام على يده بحرارة :

— تفضل .. لك وحشة كبيرة !!

جلس عصام خلف مكتبه فى حين جلس حسام أمامه . أما عبده فظل واقفا فى ركن بعيد إلى أن أمره عصام بالجلوس فجلس مكانه . قال حسام والابتسامة العذبة تغمر كل كيانه :

— لم أنم طوال الليل من الفرحة التى غمرتنى سيادتك بها !!

أشعل عصام غليونه والرضا يقاوم الشك داخله :

ـــ هل قالت لك نجلاء عن قرار عودتك ؟!

أجاب حسام وخجل العذارى يزحف على وجهه فلم ينظر إلى عصام :

ــ انتابتنى حالة شديدة من اليأس بالأمس نتيجة لابتعادى عن الصحافة كل هذه المدة .. فهرعت ألتمس السلوى عند أحد الأصدقاء حيث شاركته الشراب حتى منتصف الليل .. لكن الخمر .. برغم كرهى لها .. لم تساعدنى على نسيان مأساتى .. ولا أخفى على سيادتك أننى أسأت الظن بسيادتك .. لكننى الآن أقر وأعترف أن الإحساس بالذنب يكاد يقتلنى .. إذ كيف تسعى سيادتك كل هذه المساعى لخدمتى وإعادتى إلى الصحافة ، فى حين لا تلقى منى سوى سوء الظن وسوء النية ؟! برغم أن العرفان بالجميل كان فى مقدمة القيم التى آمنت بها ؟!

سحب عصام نفسا عميقا من غليونه متأملا حساما ، وسعيدا بالبخور العبق ، والهدوء النفسى السارى داخله :

ــ احك لى بالتفصيل كيف عرفت نبأ إعادتك للجريدة !

ــ عدت إلى المنزل فى حوالى الواحدة صباحا .. فعجبت لنجلاء التى لم تتعوَّد السهر حتى هذه الساعة المتأخرة .. كان الإجهاد واضحا عليها .. لكنه كان ممزوجا بالسعادة التى عجزت عن إخفائها ، ظلَّت تحاورنى إلى أن غلب حمارى على أمره !! عندئذ أخرجت القرار من حقيبتها .. لم أصدِّق عينى لطغيان الفرحة !!

ــ ألم تسألها كيف حصلت على هذا القرار ؟!

ــ طبعا سألتها .. فأخبرتنى أن مدام سهيلة قد مرَّت عليها وقدمته لها على سبيل المفاجأة لها أيضا !!

ــ وهل قالت لك إننى قررت إعادتك للإشراف على صفحة الفكر أيضا ؟!

تردد حسام للحظات لكنه لم يتلعثم :

ــ إن أفضال سيادتك غمرتني من رأسي إلى قدميَّ .. ولا أعرف كيف أردُّها !!

أطلق عصام سحابات كثيفة من الدخان الذى امتزج بالبخور ، أمسك بالسبحة مسبلا عينيه :

ــ إنك ابنى العزيز تماما مثل نجلاء !!

ــ أرجو يا فندم أن نكون جديرين بهذا الشرف !

نظر حسام إلى الحارس القابع فى ركنه :

ــ لا أعرف ما الذى أبقاك هنا يا عبده ؟! كيف سمحت لنفسك أن تحضر هذه المقابلة ؟!

ذهل عبده وقبل أن يفتح فمه بكلمة أمره :

ــ تفضل .. مع السلامة !!

نهض عبده وخرج مغلقا الباب خلفه دون أن يتخلص من ذهوله . سيطر حسام على ملامح وجهه بنفس الابتسامة العذبة :

ــ والآن .. أنا تحت أمر سيادتك !

ــ سأستدعى نجلاء أيضا .. حتى نضع خطة جديدة لصفحة الفكر حتى نتفادى كل المشاكل التى أدَّت إلى المضاعفات السابقة !!

قبل أن يضع عصام يده على زر الجرس فوق مكتبه ، صُعق عندما انتفض حسام واقفا وقد أخرج مسدسا من جيبه الداخلى . تساءل عصام من قلبه الذى انتفض مع حسام :

ــ ما هذا ؟!

انقلب صوت حسام إلى فحيح أجوف مخيف :

ــ إياك أن تمس أى زر !! وإلا أفرغت رصاصه كله فى قلبك !!

تمنَّى عصام أن يكون الأمر كله مجرد كابوس سرعان ما يستيقظ منه . حاول أن يكسب الوقت :

— الحارس فى الخارج .. وإذا سمع أية طلقة سيقتحم المكتب وسيقتلك !!

— جئت اليوم خصيصا للتضحية بحياتى التى لم يعد لها معنى .. ولن تكتسب أى معنى إلا إذا فقدتها !!

حاولت يد عصام أن تصل إلى الزر مرة أخرى لكن حساما كان له بالمرصاد :

— قلت لك إياك !!

فارتمت يده على مسند المقعد مستعطفا :

— سأجعلك مديرا للتحرير إذا شئت .. فأنت لا تزال شابا والمستقبل أمامك طويل عريض .. ولا أحب أن تفقده فى سبيل التخلص من عجوز مخرف مثلى لم يبق بينه وبين القبر إلا خطوات !!

— ألم تعد تحب الحياة ؟! هل فقدت نهمك لها بهذه السرعة ؟!

— إنك لم تفهمنى بعد ؟! وإن كانت نجلاء قد قالت لك شيئا عنى فهى تريد الوقيعة بيننا لطمعها فى أن تقوم هى بالإشراف على صفحة الفكر !!

فوجىء عصام بصفعة على وجهه أطارت صوابه ، بكى مستعطفا لكن حساما أمره بالتحرك بعيدا عن المكتب . أطاع دون تفكير :

— إلى أين ؟!

— إلى هذا الركن !

أشار حسام إلى المقعد الذى كان الحارس يجلس عليه . سار عصام بساقين مرتعشتين متراقصتين بعد أن ترك سبحته على المكتب . أمره حسام بالجلوس فجلس ثم انزلق ليقبِّل حذاءه ، فتفادى حسام فمه الذى انطبق على السجادة :

— أرجوك .. أنا فى عرضك .. كل ما قالته نجلاء محض افتراء !!

صاح حسام بصوت مكتوم :

ـــ كنت أتمنى أن يراك كل ضحاياك وأنت على هذا الوضع .. لكن الوقت لا يسمح .. انهض واجلس فوق المقعد حتى تسمع قرار اتهامك قبل تنفيذ الحكم !!

جلس عصام وشفتاه ترتعشان وأسنانه تصطك محدثة أزيزا تقشعر له الأبدان :

ـــ سامحنى .. ارحم شيخوختى !! لن تستفيد شيئا من قتلى !! أرجوك .. استمع لكلماتى .. فأنا أعرف أنك من أشد المؤمنين بالديمقراطية والرأى الآخر .. وأن قلبك كبير ولا يحمل ضغينة لأحد .. لا بد أن تستمع إلى دفاعى عن نفسى !!.

ـــ وكيف تدافع عن نفسك .. وأنا لم أعلن قرار اتهامك بعد ؟!

ـــ تفضل .. قل ما تشاء !!

ـــ إن ما فعلته فى حق نجلاء ونورا وعبد الحليم رضا ومنسى والآخرين يحتم قتلك خمس مرات على الأقل !!

ـــ إننى مظلوم ولا ذنب لى فى كل ما حدث .. والدليل على ذلك أننى سعيت لإعادتك !!

ـــ تماما مثلما سعيت لإرسال نورا إلى الخارج لعلاج ابنها !!

ـــ كلها إشاعات وأكاذيب .. أطلقنى وسأثبت لك عمليا أننى مظلوم !!

ابتعد حسام خطوتين ثم أطلق رصاصة فى كتفه فارتمى على ظهر مقعده . أخرج حسام من جيبه قرار إعادته إلى الجريدة وألقاه على عينيه المتحجرتين :

— هذا هو صك الغفران الذى سعيت له !!
انطلقت الرصاصة الثانية فى ساقه :
— حتى لا تعيث فى الأرض فسادًا أكثر من هذا !!
تطاير الدم على السجادة . استقرَّت الثالثة فى عنقه :
— وهذه انتقامًا لأبى .. فالغزو من الداخل أخبث من الغزو من الخارج !!

تدفقت نافورة دماء من العنق وجحظت العينان ، لكن الرابعة فى الرأس :
— وهذه لدق رأس الأفعى بسمه !
سقط عصام قدرى على السجادة كومة من الدم واللحم والعظم . التفت حسام إلى باب الغرفة فاكتشف أن أحدا لم يقتحم الغرفة برغم دوى الرصاصات الأربع . سمع فى داخله صوتا يقول : سأترك الرصاصات الأربع المتبقية تذكارًا ..!!

فتح الباب فى هدوء كصمت المقابر . كانت غرفة السكرتيرة خاوية على عروشها . على مكتب السكرتيرة كانت هناك بقايا ساندويتش ونصف كوب شاى ، وحقيبتها معلقة مفتوحة على مسند مقعدها . أحس حسام بإجهاد شديد فارتمى على أقرب مقعد صارخا :
— أين أنتم ؟! تعالوا ؟! اشهدوا جميعا على ما فعلت ؟! فأنا لم أكن لأستخدم هذا لو كنت قادرا على استخدام قلمى !! لقد قتلنى وقتل نفسه قبل أن أقتله !!

ألقى حسام بالمسدس على المكتب . وضع رأسه بين يديه والإعياء الشديد يسرى فى كل أطرافه ، لكن أحدا لم يأت ، وكأن الكون قد خلا

من البشر . فلم يسمع سوى همهمات جماعية آتية من طوابق بعيدة .. بعيدة ..

لكن خارج زجاج النافذة الرحبة ، كانت العاصفة الترابية قد انداحت تماما ، وسطعت الشمس لتغسل الأشياء والعمائر والبشر بضيائها الباهر الذى عشى بصر حسام ، لم يستطع أن يذهب إليهم فقبع فى انتظارهم ، لعلهم يأتون بعد أن يمحو نور الشمس ظلمة القلوب .

« تمت »

مكتبة مصر

كما أسهمت فى ارساء قواعد الرواية والقصة والأقصوصة فى الأربعينات والخمسينات والستينات ، بأن فتحت ذراعيها لجيل واعد من الكتاب الناشئين ، لم تلبث كتبهم أن احتلت مكانها الصحيح فى عالم التأليف ، فظهرت أسماء ثبتت لها مكانة راسخة فى الأدب المصرى الحديث ، من أمثال : نجيب محفوظ وعبد الحميد السحار وعبد الحليم عبد الله وعلى باكثير وأمين يوسف غراب ومحمود البدوى وعادل كامل وغيرهم ..

كذلك تستمر ((**مكتبة مصر**)) فى تأدية رسالتها التى أخذت على عاتقها القيام بها ، بأن تبحث فى جيل الثمانينات عن المواهب ـ وقد كان يظن أن الأرض قد أجدبت وأن الميدان قد خلا من القصاصين الموهوبين ـ فتقدم منهم :

(١) **دكتور نبيل راغب :**

ببواكير انتاجه المتميز : توابل الحب ـ جبروت امرأة ـ سور **الأزبكية** ـ سوق الجوارى ـ عصر الحريم ـ صكوك الغفران .

(٢) الأستاذ :

قهوة المواردى ـ عطفة خوخة ـ القضبان ـ لعبة القرية .

(٣) **الأستاذ فؤاد طلبة :**

حصان للبنت . **ومعى نصف القمر**

(٤) **الأستاذ عبد البديع عبد الله :**

العودة الى الحب .

ورسالة ((**مكتبة مصر**)) مستمرة ، لنشر ما تجود به قرائح أعلام الرواية والقصة والأقصوصة . فى كل الأجيال .

للمؤلف

دكتور نبيل راغب

١ ــ توابل الحب

٢ ــ جبروت امرأة

٣ ــ سور الأزبكية

٤ ــ سوق الجوارى

٥ ــ عصر الحريم

٦ ــ صكوك الغفران

رقم الإيداع ٣٥٣٩ /٨٣

الترقيم الدولى ٢ ــ ٠٠٨٨ ــ ١١ ــ ٩٧٧